جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

# تعلق الأحكام بالأعيان والذوات والمراد بعض أوصافها أو أحوالها في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية

إعداد

**دكتور: لطفي خالد محمود الجوهري**

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية و العربية
للبنين _ بالديدامون _ شرقية

المؤتمر العلمي الدولي الأول

١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

# تعلق الأحكام بالأعيان والذوات والمراد بعض أوصافها أو أحوالها
# في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية

لطفي خالد محمود الجوهري

قسم البلاغة والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالديدامون شرقية–

جامعة الأزهر–مدينة فاقوس –جمهورية مصر العربية.

**البريد الإليكتروني :** lotfiELGohary.sha.b@azhar.edu.eg

**ملخص البحث :**

انطلاقاً من إيماننا بأن الله – ﷻ – قد جعل هذه اللغة الشاعرة واسطة العقد بين اللغات جميعاً، و أنه سبحانه قد خصها بطاقات و قدرات تعبيرية جمة ، منها ما وقف عليه الباحثون ، ومنها ما لم يقفوا عليه بعد، نكاد ندركها ولا نحيط بها ، و قد حاول الباحث من خلال هذا البحث أن يقف مع إحدى قدرات لغتنا الباهرة ألا و هي تعلق الأحكام بالأعيان والذوات و المراد بعض أوصافها أو أحوالها، و تلك محاولة من الباحث للانطلاق إلى ميدان رحب فسيح من المجاز نستطيع أن نلج إليه من خلال هذا الباب ، وقد قسم البحث وفق المقامات المختلفة التي جاء فيها هذا التركيب إلى خمسة مباحث ،وتبين من الدراسة أنه من التراكيب الثرية الممتلئة ،وقد اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي.

**الكلمات المفتاحية :** تعلق ، الأحكام ،الأعيان ، أوصافها ، أحوالها .

# Rulings are related to objects and subjects, and what is meant is some of their descriptions or conditions In the Holy Quran, an analytical rhetorical study

**Lotfi Khaled Mahmoud El Gohary**
**Department of Rhetoric and Criticism - College of Islamic and Arabic Studies for Boys in Eastern Didamon**
**Al-Azhar University - Faqous City - Arab Republic of Egypt.**
**E- mail : lotfiELGohary.sha.b@azhar.edu.eg**

**Research Summary:**

**Proceeding from our belief that God has made this poetic language the mediator of the contract between all languages, and that He, Glory be to Him, has singled out many expressive abilities and capacities for it, some of which the researchers have found and some of which they have not yet found, we almost perceive and do not comprehend. Through this research, the researcher tried to stand on one of the capabilities of our brilliant language, which is the attachment of judgments to objects and some of their descriptions or conditions. The research was divided according to the different denominators in which this structure came into five sections, and it was found from the study that it is a rich and full composition, and the**

**Keywords: attachment, judgments, objects, their descriptions, conditions**

## المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه و عظيم سلطانه ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مِلء السماوات ، ومِلء الأرض، و مِلء ما شاءَ ربُنا من شيء بعد .

و الصلاةُ و السلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين سيدنا محمد و على آله و أصحابه الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وبعد :

فإن الوسط من كل شيٍء أعدله أو فيه قوله تعالى : ﭽ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭽ[1] أي عدلاً ، وواسطة القلادة أي الجوهر الذي في وسطها أجودها أو أنفس خرزها [2] .

و قيل: خير الأمور أوساطها[3]، وقيل : عليكم بالأوساط من الأشياء [4] وفي الحديث " الوالد أوسط أبواب الجنة "[5] أي خيرها ، يقال هو من أوسط قومه أي : خيارهم و أشرفهم و أحسنهم، وسميت الصلاة الوسطى بذلك لأنها أفضل الصلوات، وأعظمها أجراً ، ولذلك خصت بالمحافظة عليها، ويقال فلان وسيط في قومه إذا كان أوسطهم نسبا و أرفعهم مجداً . [6]

---

(١) سورة البقرة ١٤٣

(٢) ينظر : مختار الصحاح لزين الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي ، مادة / وسط المحقق / يوسف الشيخ محمد المكتبة العصرية بيروت الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ\ ١٩٩٩ م .

(٣) شعب الإيمان لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخرساني ٨/ ٥١٨ رقم (٦١٧٦) تحقيق د / عبد العلي عبد الحميد حامد مكتبة الرشد للنشر بالرياض الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣ م

(٤) ينظر : المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ١٢/ ٦٢ رقم ( ٢٧٥٢ ) تنسيق د / سعد بن ناصر عبد العزيز الشثري دار العاصمة السعودية الطبعة الأولى ١٤١١هـ

(٥) ينظر : سنن ابن ماجة لابن ماجة أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ١/ ٦٧٥ رقم (٢٠٨٩) باب الرجل يأمره أبوه بطلاق أمرأته تحقيق / محمد عبد الباقي دار احياء الكتب العربية فيصل عيسي البابي الحلبي .

(٦) ينظر : لسان العرب لابن منظور مادة ( وسط ) دار صادر بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ .

و لما جعل الله _عز و جل_ هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع ، و أقوم المناهج ، و أوضح المذاهب، و أكثر اللغات ألفاظاً، وأغزرها تراكيب ، وأعلاها منطقاً ، وأعدلها لفظاً و مخرجاً .

من هذا المنطلق ومن تلك الرؤية للغتنا الشاعرة الساحرة جاء هذا البحث حول إحدىٰ قدرات تلك اللغة الفذة، والذي يبين عن لبنة عظيمة في صرحها الشامخ ، و نقطة في نهرها العذب الفياض ألا وهي: ( تَعلقُ الأحكامِ بالأعيانِ والذوات و المُرادُ بعضُ أوصافِها أو أحوالِها )، و قد دفع الباحثَ لدراسة هذا الموضوع أمور متعددة منها :

١- ما يستتر وراء هذا التركيب من معانٍ لطيفةٍ و دقيقةٍ .

٢- كثرة هذا التركيب وشيوعه في القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب.

٣- اهتمام الأصوليين (علماء أصول الفقه) به ، و تحدثهم عنه مما يشير إلىٰ أهميته .

٤- محاولة تتبع هذا التركيب ومعرفة مدىٰ عطائه في المقامات المتعددة والسياقات المختلفة.

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن **تأتي الخطة:**

في مقدمة ، و تمهيد ، و خمسة مباحث ، و خاتمة ، و فهارس .

ففي المقدمة : بينت الأ سباب التي كانت وراء درا سة هذا المو ضوع ،و الخطة التي قامت عليها تلك الدراسة والمنهج المتبع فيه.

وفي التمهيد : وقفت مع عنوان البحث ، و تناولت خلاف العلماء حول تعلق الأحكام الشرـعية بالأعيان والمراد بعض أوصافها أو أحوالها هل يعد من قبيل الحقيقة أو من قبيل المجاز ؟

ثم تناولت مباحث تلك الدراسة المقامات المتعددة لذلك التركيب وجاءت علىٰ خمسة مباحث :

المبحث الأول : في مقام بيان الحكم الشرعي .

المبحث الثاني : في مقام التعظيم و التفخيم .

المبحث الثالث : في مقام الذم و التحقير .

المبحث الرابع : في مقام التحذير و الإنذار .

المبحث الخامس : في مقام النصح و الإرشاد .

وفي الخاتمة : عرضت أهم نتائج تلك الدراسة

وفي الفهارس جعلت : ١- فهرساً للمصادر و المراجع .

٢- وفهرساً للموضوعات

**المنهج المتبع** : وقد اتبعت المنهج الوصفي التحليلي .

هذا ، وما توفيقيَ إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيبُ

و صلَّ اللهم و سلم وبارك على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين .

## التمهيد

**أولاً وقفة بين يدي عنوان البحث :**

**جاء البحث تحت عنوان :** " تعلق الأحكام بالأعيان والذوات والمراد بعض أوصافها أو أحوالها في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية ".

والمراد بالتعلق: الإسناد أو الإضافة، وهي أعم من أن تكون أسناد الفعل للفاعل أو الخبر للمبتدأ، و إنما يراد بها كل تعليق و مطلق إسناد ، فالفاعل يتعلق بالفعل باعتبار كونه المباشر له ، والواقع منه و كذلك يتعلق بالمفعول باعتبار كونه الواقع عليه الفعل .

و المراد بالأحكام هي كل ما يقصد تعليقه و إضافته إلى الذوات و ليس ذلك مقصورا على الحكم الشرعي أو إن كان قصره الأصوليون عليه ، لأنه محل دراستهم و بحثهم .

و المراد بالأعيان الذوات لا الأحداث ، و الأعيان جمع عين ، و العين ذات الشيء و نفسه وشخصه و أصله.(١) والفقهاء من الحنفية وغيرهم يطلقون على ذوات الأشياء وماهيتها العين ويقابل بهذا المعنى عند العلماء ( العرض ) .(٢)

**ثانياً: تعلق الأحكام بالأعيان بين الحقيقية و المجاز :**

اختلف العلماء حول تعلق الحكم بالأعيان هل من قبيل الحقيقة أو من قبيل المجاز ؟ وهذه قضية ذات جذور أصولية، تحدث عنها علماء الأصول تحت باب الكلام في المجمل و المبين (٣) وتحت دلالة الاقتضاء. (٤)

ومنبت تلك القضية وجذرها عندهم في تعلق التحليل و التحريم بالأعيان في نحو قول الله تعالى :

---

(١) لسان العرب مادة : ( عين ) .

(٢) ينظر : المعتمد في أصول الفقه، لمحمد بن علي الطيب أبو الحسن البصري المعتزلي ١ / ١٩٣ تحقيق / خليل الميس دار الكتب التعليمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣ ه

(٣) ينظر : المعتمد في أصول الفقه ١ / ١٩٣

(٤) ينظر : المستصفى لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوبي صـ / ٢٩٣ تحقيق / محمد عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [1] و قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾[2] هل يتعلق التحريم هنا بعين الميتة والأمهات، أو يتعلق بفعل المكلف، وهل هذا التعلق تعلق حقيقي أو مجازي ؟

اختلفوا في ذلك ، و تعددت آراؤهم ، و دار بينهم الحوار الثري المثمر ، و يحاول الباحث أن يعرض تلك الآراء بين يدي القارئ الكريم، ليقف عليها و يضع يده معه ، فهذا منبت خصب ، وجذر ممتد من شجرة وارفة الظلال .

**القول الأول:** ذهب أصحابه [3] إلى أن الأحكام تتعلق بالأعيان بطريق الحقيقة لا المجاز ، كالتحريم والتحليل المضافين إلى الفعل[4] فيوصف المحل أولا بالحرمة [5] فيثبت التحريم عاما ، ثم تثبت حرمة الفعل بناءً عليه، و لذا يقول ابن عابدين : "إن إسناد الحرمة إلى العين حقيقة عندنا كما تقرر في كتب الأصول على معني إخراج العين عن محلية الفعل لينتفي الفعل بالأولي ". [6]

فالمحل عندهم أصل، و الفعل تبع بمعني أن المحل أخرج أولا عن قبول الفعل ومنع ، ثم صار الفعل ممنوعاً أو مخرجاً عن الاعتبار، فحسن نسبة الحرمة و إضافتها إلى المحل دلالة أنه غير صالح للفعل شرعاً حتى كأنه الحرام نفسه، و لا يكون ذلك من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه بأن يراد بالميتة أكلها لما في ذلك من فوات الدلالة على خروج المحل لذا يقول الإمام البزدوي: " إذا أضيف التحريم إلى العين كانت حرمة الفعل آكد وألزم ، واللزوم من أمارات الحقيقة، حتى جعلنا الفارق بين الحقيقة والمجاز أن تكون الحقيقة لازمةً لا تنفى، والمجاز يكون لازماً و ينفى فما يؤكد اللزوم كيف يكون مجازاً [7] ؟! "

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٣

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٣

(٣) وهذا قول أكثر الحنفية ومن وافقهم ينظر : رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين محمد بن عمر بن عبدالعزيز عابد بن الدمشقي الحنفي ٣ / ٧٣٠ دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م

(٤) المراد بالفعل هو فعل المكلف كالأكل المتعلق بالميتة ، و غير ذلك .

(٥) المراد بالمحل و هو العين كالميتة و الخمر و غير ذلك

(٦) رد المحتار على الدار المختار ٣ / ٧٣٠

(٧) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي لعبد العزيز أحمد بن محمد بن علاء الدين البخاري الحنفي ٢ / ١٥٩ تحقيق / عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

ثم قال : " ( لكن التحريم ) استدراك عن قوله ( فكيف يكون مجازاً ؟ ) أي لا يكون : مجازاً لكن يصير الفعل تابعاً في التحريم، بخلاف ما إذا أضيف إلى الفعل فإنه يكون مقصوراً بالتحريم، فيقام المحل مقام الفعل، يعني لما لم يثبت تحريم الفعل مقصوداً إذ لم يذكر الفعل صريحاً أقيم العين مقام الفعل في إثبات حرمة الفعل، لأن العين لما اتصفت بالحرمة ثبتت حرمة الفعل ضرورة كما بينا، أو أقيمت مقامه في الاتصاف بالحرمة لأن الفعل لم يبق متصوراً شرعاً. وهذا أي تحريم الفعل بإخراج المحل عن المحلية في نهاية التحقيق، وإن كان الفعل تابعاً لأن نفي الفعل وإن كان تبعاً أقوى من نفيه إذا كان مقصوداً. "[1]

وابن عابدين و إن كان صرح بأن هذا التعلق من قبيل الحقيقة إلا أننا نراه يدعو الطالب إلى مزيد من تحرير المسألة، ولذا نراه يقول بعد عرض المسألة: و المسألة مشكلة فلتحرر. [2]

**القول الثاني** : ذهب أصحابه إلى أن تعلق الأحكام بالأعيان من قبيل المجاز لا الحقيقة ، وجعلوه من قبيل المجاز المرسل الذي علاقته المحلية، يقول ابن أمير الحاج : " ثم هنا بحث آخر . وهو أن هذا الاستعمال حقيقي أو مجازي، فإن كان ذاك الفعل حراماً لغيره، وهو ما لا يكون منشأ حرمته عين ذاك المحل كحرمة مال الغير فإنها ليست لنفس المال بل لكونه ملك الغير فالأكل منه محرم، والمحل قابل له حلالاً، بان يأكله مالكه أو يؤكله غيره، فهو استعمال مجازي ، إما من إطلاق اسم المحل على الحال ، أو من باب حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه ، و إذا كان ذاك الفعل حراماً لعينه، وهو ما يكون منشأ حرمته عين ذاك المحل كحرمة أكل الميتة وشرب الخمر فالأكثر أنه مجاز كالأول . "[3]

---

(١) كشف الأسرار ٢ / ١٥٩ .

(٢) رد المحتار ٣ / ٧٢٠ .

(٣) التقرير و التحبير لابن أمير الحاج ١ / ٢١٥ دار الفكر بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

**والقرينة الصارفة إلى المجاز هي** : أن التحليل و التحريم يستحيل أن يتعلق بالأعيان ، لأنهما حكمان شرعيان، والحكم الشرعي إنما يتعلق بما هو مقدور للعبد من أفعاله، والأعيان غير مقدورة له، فيستحيل تعلقها بها، وحينئذ يجب تعليقهما بالأفعال المتعلقة بتلك الأعيان .

ثم إن هذا التعليق إما أن يتعلق بجميع الأفعال و هو باطل ، لأنه إضمار من غير حاجة ، و إما أن يكون ببعض معين، فإن قيل: البعض ليس أولى من البعض ، كان الجواب : أن الفعل المطلوب هو البعض الأولى بدلالة العرف، و من ثم كان هذا قرينة صارفة للفظ عن ظاهره إلى ما يتعلق به من فعل معين مقصود . [1]

**القول الثالث** : و ذهب أصحابه إلى أن تعلق الأحكام بالأعيان من قبيل المجاز العقلي ، لأن التكليف لا يتعلق بالأعيان، وإنما يتعلق بالأفعال و لذا يقول التفتازاني في التلويح فيما نقله عن صاحب الأسرار و قال هو الأقرب: " إن الحل والحرمة إذا كانا لمعنى في العين أضيفا إليها نسبة ، كما يقال: جرى الميزاب، فيقال : حرمت الميتة ، لان تحريمها لمعنى فيها، ولا يقال: حرمت شاة الغير، لأن حرمتها لاحترام المالك لا لمعني، فيها أما إذا كان الحل و الحرمة ليسا لمعنى فيها لم يضف إليها، و إنما يضاف إلى الفعل.[2]

وبهذا يكون نص الإمام على المجاز العقلي في قوله: ( أضيفا إليها نسبةً ) أي ينسب الحكم إلى العين والمراد نسبته إلى الفعل المتعلق، عن طريق المجاز العقلي الذي علاقته المحلية .

و قال كمال ابن الهمام في رده على فخر الإسلام البزدوي الذي قال بالحقيقة و منع المجاز: " وادعاء فخر الإسلام وغيره من الحنفية الحقيقة لقصد إخراج المحل عن المحلية، تصحيحه بادعاء

---

(١) ينظر : نهاية الوصول في دراسة الأصول لصفي الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموي الهندي ٥ / ١٨١٨ المحقق د/ صالح بن سليمان اليوسف و د/ سعد بن سليمان السوحي المكتبة التجارية بمكة المكرمة – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

(٢) شرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ٢ / ٢٥٣ مكتبة صبيح بمصر .

تعارف تركيب منع العين لإخراجها عن محلية الفعل المتبادر لا مطلقاً، و فيه زيادة بيان سبب العدول عن التعليق بالفعل إلى التعلق بالعين".[1]

فأشـــار الإمام كمال بن الهمام إلى ما ذهب إليه البزدوي مع توجيه من عنده مصـــحح لعبارته، ويزيد صاحب التقرير الأمر شرحاً و تفصيلاً فيقول:" والحكم خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين، فتعليقه بالعين تجوز وأنه [2] يلزم مثلاً أن تكون حرمة الخمر أقوي من حرمة مال الغير لكن الأمر بالعكس، لأن الخمر و الميتة و الدم ونحوها يجب تناولها عند الضرـــورة، و إن أضـــيف الحرمة إلى عينها، ومال الغير لا يجب تناوله عند الضرورة، بل الصبر أولى و إن مات ".[3]

وبهذا يرفع ابن أمير الحاج أن يكون إســـناد الحكم إلى العين حقيقية، لأنه يلزم منه أن تكون منه حرمة الخمر أ شد من حرمة مال الغير، لأن الحكم فيها قد أ سند إلى الفعل لا إلى العين، و لا شك أن الأمر بالعكس، ولذلك كان الإسناد مجازي للتنبيه على المبالغة في الانتهاء .[4]

**القول الرابع** : أن هذا التعلق مجاز ، ثم اشتهر حتى صار حقيقة عرفية .[5]

**القول الخامس** : أنه ليس من قبيل الحقيقة العرفية ، و لا المجاز المرسل، و لا المجاز العقلي، بل هو إيجاز لا مجاز.[6] وهذا الرأي يكاد يكون الرأي الأول .

**الرأي الذي يرجحه الباحث :**

و يرى الباحث أن أرجح الآراء و أقربها ، هو القول الثالث القائل بأن ذلك من قبيل المجاز العقلي، وهو رأي الجمهور من الـ شافعية والمالكية والحنابلة ، لقوة القرينة الـ صارفة عن الحقيقة، وهي

---

(١) التقرير و التحبير ١ / ٢١٦ .

(٢) الضمير يعود على إسناد الحكم إلى العين أي يلزم من ذلك أن تكون حرمة الخمر أشد من حرمة مال الغير .

(٣) التقرير و التحبير ١ / ٢١٦ .

(٤) ينظر : التقرير و التحبير ١ / ٢١٦ .

(٥) ينظر : التقرير و التحبير ١ / ٢١٦ .

(٦) ينظر : شرح التلويح على التوضيح ٢ / ٥٠ .

أن التكليف في نحو قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾[1] لا يتعلق بالأعيان و إنما يتعلق بالأفعال، فلا يصح حمل الكلام على حقيقته، كما لم يتحوز في لفظ ( حرمت )، ولا في لفظ ( الميتة )، وإنما التجوز في إسـناد التحريم إلى الميتة ، لذلك وغيره كان القول القائل بأن مثل ذلك من قبيل المجاز العقلي هو أقرب الآراء و أرجحها عند الباحث .

و أياً ما كان هذا التركيب من قبيل الحقيقة أو من قبيل المجاز فإنه لا شـك تركيب ثري ممتلئ يحتاج إلى وقفة متأنية بالدراسة والتحليل لكشف ما يستتر وراءه من أسرار خفية و نكات بلاغية.

(١) سورة المائدة آية رقم ( ٣ ) .

## المبحث الأول : في مقام بيان الحكم الشرعي :

و من ذلك قول الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ (١)

أحل الله -ﷻ- لنا الطيبات لما لها من أثر نافع ، وحرم علينا الخبائث لما لها من أثر خبيث، وهذه الآية تبين عن جملة المطعومات التي تحرم على المؤمن، وهي الميتة(٢)، والدم ، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به(٣)، و المنخنقة (٤) ، والموقوذة (٥) ، والمتردية (٦) والنطيحة (٧) ، وما أكل السبع (٨)، وما ذبح على النصب (٩) .

والمتأمل يجد أن التحريم في الآية قد تعلق بذات الميتة ، وبذوات ما عطف عليها من أصناف أخرى، ومن المعلوم أن العين ليست محرمة، وإنما المحرم الفعل المتعلق بها و هو الأكل، ولذا يقول الإمام الرازي:"

---

(١) سورة المائدة آية ( ٣ )

(٢) الميتة من الحيوان : ما زال روحه بغير تزكية ينظر : مفردات ألفاظ القرآن للمؤلف / الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني صـ/ ٧٨٢ تحقيق / صفوان عدنان داودي دار العلم – دمشق – بيروت ١٤١٢هـ .

(٣) و ما أهل لغير الله به : أي ما رفع الصوت لغير الله به كقولهم : باسم اللات و العزى عند ذبحه ، ينظر : أنوار التنزيل و أسرار التأويل ( تفسير البيضاوي ) تأليف / ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ٢ / ١١٤ المحقق / محمد عبد الرحمن المرعشلي دار إحياء التراث العربي ، بيروت الطبعة الأولى .

(٤) المنخنقة : التي ماتت بالخنق تفسير البيضاوي ٢ / ١١٤ .

(٥) الموقوذة : المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت ، من وقذته إذ ضربته ينظر : تفسير البيضاوي ٢ / ١١٤ .

(٦) المتردية : التي تردت من علو ، أو في بئر فماتت ينظر : تفسير البيضاوي ٢ / ١١٤ .

(٧) النطيحة : التي نطحتها أخرى فماتت ينظر: تفسير البيضاوي ٢ / ١١٤ .

(٨) ما أكل السبع : ما أكل منه السبع فماتت ينظر : تفسير البيضاوي ٢ / ١١٤ .

(٩) ما ذبح على النصب : و احد الأنصاب ، و هي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ، و يعدون ذلك قربة ينظر : تفسير البيضاوي ٢ / ١١٤ .

والأ صل فيه أن الحرمة و الإباحة إذا أ ضيفا إلى الأعيان فالمراد تحريم الفعل المطلوب منها في العرف، فإذا قيل (حر مت عليكم الميتة و ا لدم ) فهم كل أ حد أن المراد تحريم أكلها، و إذا قيل : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [1] فهم كل أحد أن المراد تحريم نكاحهن" [2] .

ومما يدل كذلك على أن المراد تحريم الأكل لا العين ما جاء في حديث ابن عباس – ﷺ – قال: تصدقت مولاة لميمونة بشاة فماتت، فمر بها رسول الله – ﷺ – فقال : " هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به"، فقالوا: "إنها ميتة" ، فقال : " إنما حرم أكلها " [3].

فإذا تبين لدى القارئ الكريم أن التحريم قد جاء في الآية متعلقاً بالعين، والمراد بعض أحوال تلك العين وهو ( الأكل )، كان لزاماً علينا أن نتساءل هنا سؤالاً مهماً ألا و هو: ما السر البلاغي و راء مجيء هذا التعلق على تلك الطريقة، دون التعلق بالأكل صراحة ؟

جاءت هذه الآية استئنافاً بيانياً عن قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[4] فهي بيان لما ليس بحلال من الأنعام، ومعنى تحريم هذه المذكورات تحريم أكلها، لأنه المقصود من مجموع هذه المذكورات هنا، و الأكل إحدى أحوال الأنعام التي ينصرف إليها الذهن عرفاً عند ذكرها[5].

و جاء التعلق بالأعيان للتحذير الشديد، والإنذار من شدة خطر تلك المحرمات، وبيان مدى قذارتها وخبثها حتى يتجنبها الناس ولا يطعموها بوجه من الوجوه، فكأنها محرمة العين، لان في تسليط التحريم على العين إخراجاً للعين عن محلية الفعل لينتفي الفعل بالأولى، و لذا يقول

---

(١) سورة النساء آية ( ٢٣ ) .

(٢) تفسير الرازي ١٠ / ٢٢ .

(٣) صحيح مسلم لأبي الحسن مسلم بن الحاج القشيري النيسابوري كتاب الطهارة، باب طهارة جلود الميتة بالدباغ رقم ( ٨٣٢ ) ١ / ١٩٠ دار الجيل بيروت .

(٤) سورة المائدة آية ( ١ )

(٥) ينظر التحرير و التنوير ٢ / ١١٥ .

البزدوي: "إذا أضيف التحريم إلى العين كانت حرمة الفعل آكد و ألزم." (١) ومن ثم كان ذلك أدل على المبالغة في التحذير، وألفت للأذهان، وأشد تنبيهاً لها .

و من ذلك أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢) .

نوهت الشريعة الإسلامية ببيان القرابة القريبة ، و غرست لها في النفوس و قاراً يتنزه عن شوائب الاستعمال في اللهو و الرفث الذي يكون بين الأزواج، فمرجع تحريم هؤلاء المحرمات المذكورات في الآية بهذا التفصيل إلى قاعدة المروءة النابعة لكلية حفظ العرض ، و ذلك مظهر سامٍ من مظاهر الرقي و الاعتدال.(٣)

والناظر يجد أن التحريم في الآية قد أسند إلى الأعيان ، و ليس المراد تحريم ذواتها ، و إنما المراد تحريم الفعل المطلوب منها في العرف وهو النكاح؟ لأنه المتبادر إلى الفهم هنا، لأن ما قبله في النكاح وهو قول الله -ﷻ-: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾(٤).

---

(١) كشف الأسرار ٢ / ١٥٩ .

(٢) سورة النساء آية ( ٢٣ ) .

(٣) ينظر : التحرير و التنوير للمؤلف / محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ٤ / ٢٩٣ الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٤ م

(٤) سورة النساء ( ٢٢ )

و ما بعده في النكاح و هو قول الله -ﷻ- ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾[1] ، و لو لم يكن المراد النكاح هنا لكان تخلل أجنبي بينهما من غير نكتة .[2]

و نص على ذلك الإمام البيضاوي فقال : " ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن . "[3]

وقد أقيم أسم الذات مقام الفعل المقصود منها هنا مبالغةً و تأكيداً على مدى حرمتهن ، وتشديداً على أن هذا الأمر لا يحتمل المخالفة، و إبعاداً لهن عن مظنة الفكر و الهوى، و احتراماً وتعظيماً لقدرهن .

ولذا جاءت جملة النهي هنا خبرية لفظاً مبدوءة بفعل التحريم لتبين عن كون هذا الأمر مقرراً في النفوس لا يحتمل التلبس به بحال من الأحوال .

وقرنت هؤلاء المحرمات في سلك واحد، وجاءت مرتبة من الأعلى إلى الأدنى ، مفصلة تفصيلاً دقيقاً حتى لا تترك لأحد مجالاً فتوسوس له نفسه بشيء من ذلك قرب أم بعد .

---

(١) سورة النساء ( ٢٤ )

(٢) ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن و السبع المثاني المؤلف / شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ٢ / ٤٥٨ المحقق / علي عبد الباري عطية دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .

(٣) تفسير البيضاوي ٢ / ٦٧ .

ومنه أيضاً قول الحق سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1]

كانت الخمر [2] ، والميسر [3] ، والأنصاب [4] ، والأزلام [5] من معالم الجاهلية، ومن التقاليد المترسخة في المجتمع وقتئذ، حيث كان الناس يشربون الخمر ، ويتفاخرون بها ، وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح على الأنصاب، كما كانوا يستقسمون تلك الذبائح على الأزلام ، ولما كانت هذه الأشياء مفضية إلى مفاسد عظيمة يرفضها الدين نهى عنها، وجعلها محرمة .

و المتأمل يجد أن الأمر ( فاجتنبوه ) قد سلط على الأعيان وهي ( الخمر و الميسر و الأنصاب والأزلام ) بينما المراد بعض أحوالها ، والتقدير : فاجتنبوا شرب الخمر ، والتقامر بالميسر وعبادة الأصنام والاستقسام بالأزلام، وجاءت الإضافة إلى الأعيان هنا للدلالة على مدى خبثها و شدة ضررها، وإيذاناً بوجوب اجتنابها، فكأن أعيانها هي المنهي عنها، والمأمور بالتنزه عنها كما يتنزه عن الأقذار والنجاسات؛ ولذا يقول الإمام البيضاوي: " و اعلم أنه سبحانه أكد تحريم الخمر الميسر في

---

(١) سورة المائدة آية ( ٩٠ )

(٢) الخمر : أصل ستر الشيء ، ويقال لما يستر به الخمار ، و الخمر سميت لكونها خامرة لمقر العقل ، وهي عند بعض الناس اسم لكل مسكر، وعند بعضهم للمتخذ من العنب و التمر ينظر : مفردات الفاظ القرآن ١ / ٣٨٤.

(٣) الميسر : القمار ، و الياسر : الواجب بسبب القداح ، و كانت العرب لها عشرة قداح و هي : الأزلام ، و الأقلام، والفذ، والتوءم ، والرقيب، والحلس، والمسبل، والمعلى، والنافس ، والمنيح ، والسفيح ، والوغد، وكان لكل نصيب معلوم من جزر ينحرونها، و يجزؤونها عشرة أجزاء ينظر : الكشاف عن غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري ١ / ٢٦١ دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .

(٤) الأنصاب : نصب الشيء و ضعه ناتئاً كنصب الرمح و البناء و الحجر ، و كان للعرب حجارة تعبدها ، و تذبح عليها، والجمع : أنصاب ينظر : مفردات ألفاظ القرآن ٢ / ٤٣١ .

(٥) الأزلام : جمع زلم و هو القدح ، و كانت العرب إذا قصدوا شيئاً ضربوا ثلاثة قداح ، ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – تفسير أبي السعود لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ٣ / ٦ دار إحياء التراث العربي – بيروت .

هذه الآية بأن صدر الجملة بـــ ( إنما )، وقرنها بالخمر والميسر، و سماهما رجساً ، و جعلهما من عمل الشيطان تنبيهاً على أن الاشتغال بها شر بحت أو غالب، وأمر بالاجتناب عن ذواتها (عينها)، وجعله سـببا يرجى منه الفلاح، ثم قرر ذلك بأن بين ما فيهما من المفاسـد الدينية و الدنيوية المقتضـية للتحريم.[1]

ثم لنا أن نتمعن فيما جاء مصـاحباً الخمر و الميسر ـ لندرك مدى حرمتها فقد جاءا مصـاحبين الأنصاب والأزلام وهي من أعمال الشرك يقول الإمام الزمخشري : " فإن قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب و الأزلام؟ وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر وإظهاراً أن ذلك جميعاً من أعمال أهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره، وكأنه لا مباينة بين من عبد صنماً وأشرك بالله تعالى في علم الغيب، وبين من شرب خمراً أو قامر."[2]

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٤٢ .

(٢) الكشاف ١ / ٦٧٥ .

ومثل ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[1]

ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ جيء بـــ ( في ) الدالة على الظرفية لإفادة شدة تعلق الإثم و المنفعة[2] بهما، لأن الظرفية أشد أنواع التعلق، وهي هنا ظرفية مجازية [3] .

وجعلت الظرفية متعلقة بذات الخمر وذات الميسر، والمراد بعض أحوالهما وهما: شرب الخم، والتقامر بالميسر للدلالة على المبالغة في لصوق الإثم بهما لصوقاً أكيداً لا ينفك عنهما.[4]

كما اقترنت الآية بكثير من الإشارات التي تلوح بشدة خطرهما، حيث بدئت بالسؤال عن الأمر في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ، ثم جيء الجواب مبدوءاً بمادة القول في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ كل ذلك للاهتمام بالأمر و التنبيه على شدة خطره و لفت الأنظار إليه.[5]

---

(١) سورة البقرة آية ( ٢١٩ )

(٢) و المنافع كانت من التجارة في الخمر و صناعتها ، فلقد كانت التجارة بها رائجة في الجاهلية ، كما كان من العرب من يتكسب بالميسر .

ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات و السور = تفسير البقاعي ، المؤلف إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، ٣ / ٢٤١ ، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة .

(٣) الظرفية المجازية : حيث شبه مطلق ملابسة الإثم و المنفعة بالخمر و الميسر بمطلق ملابسة بين ظرف و مظروف، بجامع مطلق الملابسة في كل ، فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات ، فاستعير لفظ ( في ) من جزئي من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه على سبيل الإستعارة التصريحية التبعية في الحرف .

(٤) ينظر : التحرير و التنوير ٢ / ٣٤٤ .

(٥) ينظر : التحرير و التنوير ٢ / ١٧٨ .

ثم إن المراد من السؤال عن الخمر والميسر ليس السؤال عن أعيانهما، وإنما المراد السؤال عن حكم شرب الخمر، وعن حكم التقامر بالميسر، ولكن جاء التركيب على تلك الهيئة للإبانة عن خطرهما بالكلية، والتنويه والتنبيه على شدة ضررهما بأي وجه كان .

ثم لنا أن نتأمل تقديم ذكر الإثم على المنفعة ، و وصف الإثم بالكبير ، و تأخير ذكر منافعهما وتخصيصها بالناس للدلالة على غلبة الأول، ثم التصريح بأن ما لهما من إثم أعظم وأخطر مما لهما من منافع دنيوية كل ذلك وغيره جاء ليلفت الأنظار إلى شدة ضررهما ، والتنبيه على خبثهما والتلويح بالإعراض عنهما، و تحفيز النفوس الطاهرة و حثها نحو طريق الخير و الصلاح بهدوء وروية، ولذلك عندما سمع المؤمنون منهم من بادر و سارع إلى تركها والابتعاد عنها ، قبل نزول آية التحريم الصريح لها وهي الآية السابقة .

و منه أيضاً قول الله -ﷻ- : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾[1] .

كانت عند العرب عادات ظالمة ، فقد كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان شيئاً من الميراث ، وكانوا يقولون إنما نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة [2] كذلك كانوا يظلمون اليتامى ، فقد تكون اليتيمة عند الرجل، فإذا كانت جميلة ولها مال تزوج بها ، و لم يعطها صداقاً ، و أكل مالها، وإذا كانت

---

(١) سورة النساء آية ( ١٢٧ ) .

(٢) و من ذلك ما روى أن عيينة بن حصين أتى النبي - ﷺ - فقال : " أخبرنا أنك تعطي الابنة النصف ، والأخت النصف، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ، و يحوز الغنيمة ، فقال : الرسول - ﷺ - : " كذلك أمرت " ينظر تفسير البيضاوي ٢ / ٢٦٠ .

دميمة منعها من الأزواج حتى تموت فيرثها، فجاءت تلك الآية لتقضي على تلك العادات الظالمة، وتقتلعها من جذورها الضاربة في البيئة العربية . (١)

والمراد بقوله تعالى :﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ أي : يستفتونك في أحكام النساء ، إذ قد علم أن الاستفتاء لا يتعلق بذوات النساء فهو مثل قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾، وأخص أحكام النساء أحكام معاشرتهن، وولايتهن ، وميراثهن ، ومن ثم أقيم اسم الذات مقام الحال المقصودة بالسؤال عنها. (٢)

وجاء تعلق الا ستفتاء بالذوات ( النساء ) دون الأحوال لا ستدرار العطف عليهن ، و لا ستمالة القلوب إلى الإحسان إليهن، إذ إن هذا التسليط على الذوات الضعيفة المهيضة يشعر السائل بأن من يستفتى عنهن ضعافاً، فليس من المروءة أن يستقوي عليهن ، ومن ثم يسارع إلى فعل ما فيه مصلحتهن، ودفع أي ضرر قد يلحق بهن .

كما أن الإسناد إلى الذوات مشعر بالتفرد و الاستقلال، وكأن الشارع يرد على من يستقوى على الضعيفة مهيضة الجناح، ويقول له: إن لها كياناً مستقلاً ، و ذمة مالية مستقلة ، فلا يحق لك أن تتصرف معها باستعلاء و استقواء .

و لما بدئ بالاستفتاء جاء الوعد باستيفاء الاجابة عنه في قوله – ﷻ – ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ لتبشير السائل المتحير بأنه قد وجد مطلبه، ولتوجيه المخاطب بأن يأخذ الأمر مأخذ الاهتمام والعناية .

---

(١) ينظر : تفسير مفاتيح الغيب = التفسير الكبير لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين التيمي الرازي ١١ / ٢٣٣ دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ .

(٢) ينظر : التحرير و التنوير ٥ / ٢١٢

وجاء تعليق الفتيا بالذات كذلك للمرة الثانية في قوله: ﴿يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ والمراد: يفتيكم في أحكامهن، للإشعار بأن الله -ﷻ- هو من تولى رعايتهن لا الأوصياء، و قضى لهن بما فيه نفعهن ومصلحتهن في سائر الأحكام، و الإشعار بمكانتهن و قدرهن عند الحق سبحانه. (١)

وجاء إسناد تلك الفتيا إلى الله -ﷻ- إشعاراً بعظمها، و تحذيراً من مخالفتها، و حثاً على الإسراع إلى العمل بها.

و مثل ذلك قول الله تبارك و تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢)

حثت الشريعة على القيام بمصالح الأيتام، لأنهم ضعاف لا يستطيعون أن يتكسبوا كما كان يتكسب الأب، ولما كانوا عرضة للضياع والإهمال، كان لزاماً أن يكون هناك من يقوم على أمرهم، ويتولى شؤونهم، لكن نظراً لضعفهم، وقلة حيلتهم قد يستضعفهم الأوصياء، فيستحلون أموالهم، ولا يجدون من ينصرهم، لذا حذر الإسلام من أكل أموال اليتامى، أو التصرف فيها بغير حق.

ولنا أن نتدبر تلك الآية التي بين أيدينا لنستشعر حرص الشريعة على الأيتام إذ قد بدئت بالسؤال المردف بالجواب عليه تنويهاً بأهميته، وإثارة وتنبيهاً للمخاطب حتى يأخذ الأمر مأخذ الجد والحرص والعناية به.

وجاء السؤال مسلطاً على ذات اليتامى في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وليس المراد السؤال عن أعيانهم، وإنما السؤال عما يتعلق بهم من أحكام، يقول الإمام الرازي: "أي يسألونك عما يتعلق بهم من أحكام اليتامى، وهو حكم التصرف في مالهم و مخالطتهم في المواكلة."(٣)، وذلك لاستثارة مشاعر الشفقة عليهم، و كأن هذا التركيب يشير إلى أن الذي يستغل اليتيم حاجته، وفقره،

---

(١) ينظر: التحرير و التنوير ٥ / ٢١٣

(٢) سورة البقرة آية (٢٢٠).

(٣) تفسير الرازي ١٥ / ٤٤٨.

وضعفه ، ومسكنته، وقلة حيلته لا يؤذيه من جانب واحد، ولا يتعرض لماله فحسب، وإنما يتعرض لذاته بكل أنواع الإيذاء المادية و المعنوية .

إن هذا السؤال بتلك الطريقة لهو تذكرة للأوصياء بأن من يعولونهم و يقومون على أمرهم وإن كانوا ضعفاء لا يقدرون على القيام بمصالحهم، لكنهم ذوو شخصيات معتبرة قد حفظ لها الشارع استقلالها وتفردها ، وما منعوا عن التصرف إلا وقتاً محدوداً سرعان ما سينقضي، فيتصرفون في أموالهم كما يشاءون، ثم جاء الجواب من الحق سبحانه على السؤال فقال: - ﷻ- ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ فجاءت كلمة "إصلاح" نكرة لتشمل فعل كل ما فيه المصلحة ، ودفع كل ما فيه المضرة عنهم.

ثم أردف بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ وعداً لمن أصلح و قام على أمر اليتيم بالمعروف، ووعيداً لمن أفسد فظلم اليتيم وأسرف وأكل من ماله بغير حق .

ومن ذلك أيضاً قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١)

وقع خلاف بين المسلمين في غنائم بدر ، فسألوا الرسول -ﷺ- أهي للمهاجرين أم للأنصار؟ أهي للشبان أم للشيوخ؟ إذ قال الشبان: الغنائم لنا فنحن الذين قاتلنا ، وقال الشيوخ : لو أخذتموها ما بقي لنا شيء، وقد كنا لكم ردءاً ، فجاء الخطاب إلى النبي - ﷺ - أن يخبرهم أن أمر الأنفال(٢) لله يجعل تقسيمها في من شاء ، و ليس لأحد قول فيها . (٣)

---

(١) سورة الأنفال آية ( ١ )

(٢) الأنفال : جمع نَفَل بالتحريك ، و النَفَل مشتق من النافلة و هي الزيادة في العطاء ، و قد أطلق العرب في القديم الأنفال على الغنائم في الحرب كأنهم اعتبروها زيادة على المقصود من الحرب، لأن المقصود الأهم منها هو إبادة الأعداء، ولذلك ربما كان صناديدهم يأبون أخذ الغنائم . ينظر : التحرير و التنوير ٩ / ٢٤٩ .

(٣) ينظر : التفسير الواضح د/ محمد محمود حجازي ١ / ٨٠٤ ، دار الجيل الجديد .

ومعنى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ أي: يسألونك عن حكمها ، ومعرفة كيف تقسم الحقوق فيها، فهو من تعليق الفعل باسم الذات، والمراد حالها بحسب القرينة ، مثل قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾. (١)

وجاء التعبير بالفعل المضارع (يسألونك ) للدلالة على تكرار السؤال منهم مرة بعد مرة، وللإشعار بشدة التنازع بينهم في هذا الأمر، وقد كانت للعرب عوائد متبعة في الجاهلية في الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها، وتخالفوا في شأنها .

وجاء السؤال متعلقاً بذات الأنفال دون حكمها للأشعار بنزعها بالكلية من البشر ، فليس لأحد فيها نصيب، وإنما العطاء فيض تفضل من الله سبحانه ، وفي ذلك تلميح بالتعنيف و التأديب على ما كان منهم، وهم من هم رفعة و مكانة و منزلة .

ولذا جاء الجواب في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ فأخذهم الله – ﷻ – بالتربية قولاً وعملاً، إذ جاء التصريح بنزع أمر الأنفال كله منهم، ورده إلى رسوله – ﷺ – يأمر الله – ﷻ – نبيه – ﷺ – بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ، فيمتثل الرسول أمر ربه ، وليس الأمر فيها مفوضاً إلى رأى أحد.(٢)

كما أن مجيء السؤال متعلقاً بذات الأنفال دون حكمها فيه تلويح بشدة تعلق نفوسهم بها ، و عظم رغبتهم فيها، والآية إذ تلوح بذلك تعرض بانكبابهم على الغنائم، وتمسكهم بها كل هذا التمسك وهم الثلة الأولى التي دافعت عن النبي – ﷺ – فما ينبغي لمثلهم أن ينشغل بمثل هذا.

ثم أمرهم الحق – ﷻ – بالتقوى و إصلاح ذات البين و طاعة الله و الرسول و بالتسليم والإذعان، وترك الاختلاف والتشاحن ثم ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إلهاباً وتهييجاً وحثاً على الامتثال والانقياد .

---

(١) ينظر التحرير و التنوير ٩ / ٢٤٨ .

(٢) ينظر الكشاف ٢ / ١٩٥ .

وهكذا في جميع الآيات التي افتتحت بـ (يسألونك) هي متضمنة لأحكام أو أحوال وقع السؤال عنها [1] فليس السؤال فيها عن ذوات تلك الأشياء، وإنما السؤال عن أحكام وأحوال لها تعرف بدلالة السياق، وقد جاء الإسناد فيها على تلك الهيئة التركيبية لغرض بلاغي وسر خفي .

ومما جاء في هذا المقام كذلك قول الله – ﷻ – : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ [2] كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الضعفاء من الغلمان، ولا يورثون إلا من أطاق القتال، وكان عندما يموت الرجل يأتي الكبير فينفرد بميراثه، ولا يعطي لأبناء الميت، ولا لامرأته شيئاً منه، وكانوا يقولون : إنما يرث المال من يحمي الحوزة ، و يرد الغنيمة ، و يقاتل عن الحريم، فأنزل الله –ﷻ – تلك الآية حتى لا يكون لأحد رأى في الميراث ويكون أمره كله لله يقسمه وفق ما اقتضته حكمته و علمه، فهو سبحانه العليم بمصالح العباد ، الحكيم فيما قضي و قدر . [3]

وجاء تصدير آية المواريث بقوله تعالى:﴿ يُوصِيكُمُ ﴾ومعناه : يأمركم ، و يفرض عليكم[4]، فعدل عن لفظ الأمر أو الفرض إلى لفظ الوصية للإشعار بالاهتمام بتلك الأحكام ، لأن الوصية هي الأمر بما فيه نفع المأمور، و فيه الاهتمام بالأمر لشدة صلاحه ، و لذلك سمي ما يعهد به الإنسان فيما يصنع بأبنائه و بماله و بذاته بعد الموت وصية . [5] يقول الألوسي : " و عدل من الأمر إلى الإيصاء لأنه أبلغ، و أدل على الاهتمام و طلب الحصول بسرعة "[6]

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٢ / ١٩٠ .

(٢) سورة النساء آية ( ١١ ) .

(٣) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات و السور = تفسير البقاعي ٥ / ٢٤٦.

(٤) ينظر تفسير أبي السعود ٢ / ١٥٠ .

(٥) ينظر التحرير و التنوير ٤ / ٢٥٦ .

(٦) روح المعاني ٢ / ٤٢٦ .

و جاء إسناد تلك الوصية إلى الله –ﷻ– للإشعار بعظمها ، وأنه لا ينبغي لأحد أن يغير فيها وفق هواه .والمراد في قوله تعالى: ﴿ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾ أي في إرث أولادكم ، و( في) هنا للظرفية المجازية[1] جعلت الوصية كأنها مظروفه في شأن الأولاد لشدة تعلقها به كاتصال الظرف بالمظروف .[2]

ومجرورها محذوف قام المضاف إليه مقامه لظهور أن ذوات الأولاد لا تصلح أن تكون ظرفاً للوصية، فتعين تقدير مضاف على طريقة دلالة الاقتضاء، وتقديره: في إرث أولادكم ، والمقام يدل على المقدر على حد قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ ﴾.[3]

وجاء التركيب على هذه الصورة من التعلق بالذوات و هي ( الأولاد ) بجعل الوصية كائنة ومستقرة فيهم، بينما المراد بعض أحوالها و هي الإرث للإشارة إلى أن هذه الوصية من شأنها أن تحافظ على الأبناء بإبقاء المودة في القلو ، و دوام أواصر المحبة بين الأرحام و ذوي القربى ، فلا شك أن الخلاف في الإرث، والتمييز فيه بين الورثة ينبت البغضاء و الشحناء ، وينزع المودة والرحمة من الصدور، من أجل كل ذلك وغيره جعلت الوصية كأنها وصية في الأولاد أنفسهم لأنها تحفظهم، وتحفظ ما بينهم من علائق وصلات، وبهذا يستقر المجتمع ، ويطمئن كل فرد فيه على حقه، ولا يخاف عليه من الضياع بسبب ضعفه .

ولما كانت جملة ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾ مجملة أردفت بالتفصيل في قوله تعالى : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ للتنبيه ولفت الأنظار و التنويه بأهميته و خطره .

---

(١) حيث شبه مطلق ملابسة الوصية بالأولاد بمطلق ملابسة بين ظرف و مظروف بجامع مطلق الملابسة في كل، فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات ، فاستعير لفظ ( في ) من جزئي من جزيئات المشبه به إلى جزئي من جزيئات المشبه على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف .

(٢) ينظر التحرير و التنوير ٤ / ٢٥٧.

(٣) ينظر : التحرير و التنوير ٤ / ٢٥٧.

وجعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر ، وقد كان هذا المراد صالحاً لأن يؤدي بنحو وللأنثى نصف حظ الذكر، أو للأنثيين مثل حظ الذكر للإيحاء إلى أن حظ الأنثى صار معتبراً في الشرع، إذ كانت مهضومة الجانب في الجاهلية فصار الإسلام ينادي بحظها أول ما يقرع الأسماع.[1]

(١) ينظر : التحرير و التنوير ٤ / ٢٥٧ .

## المبحث الثاني : في مقام التعظيم و التفخيم :

من الأمور التي هي مسلمة مقررة معلومة أنه إذا سألك سائل، و كان شاكاً في أكثر من رجل أيهم زيد، وكنت عارفاً به، أو بهيئته، أو سامعاً به سماعاً يصل إلى حد الرؤية قلت مجيباً السائل إذا رأيت زيداً قادماً من بعيد: **ذلك زيد لاشك فيه** .

فالشك هنا متوجه إلى الذات، و قد جاء منفياً ليرفع هذا الشك عنها ، هذا و قد يتوجه الشك إلى الذات لا للشك فيها، و لكن فيما يتعلق بها من صفات ، و مثال ذلك عندما ترتاب في صدق رجل أو في وفائه أو إخلاصه فتقول: **أشك في زيد** .

فأنت هنا لا تقصد أن تشك في ذاته ، فهو معلوم عندك ، و لكن تريد أن تشك فيما يتعلق بتلك الذات من صفات الإخلاص و الصدق و الوفاء مما له علاقة و صلة بالكلام ، و يعرف بمقتضى دلالة المقام .

و من ذلك أيضاً قول القائل: **أشك في هذه النقود** ، فيسلط فعل الشك على ذات النقود ليدل على أن الشك في كونها نقوداً أم لا .

و يقول آخر : **أشك في هذه النقود** ، و لا يقصد أن يشك في ذاتها ، و لكن يقصد أن يشك فيما يتعلق بها من صفات، و هي كونها حلالاً أم حراماً .

و يقول ثالث : **أشك في النية** ، فيسلط الشك على ذات النية ليقصد أن يخبر أنه لم يتأكد من حدوثها أحصلت أم لم تحصل؛ و أقرنت بالعمل أم لم تقرن ؟

و يقول آخر : **أشك في نيتك** ، فيسلط كذلك الشك على ذات النية بقصد الشك فيما يتعلق بها من صفات الإخلاص، وخلوصها من شائبة النفاق والرياء و غيرها .

إن المتكلم عندما يسلط الشك على الذات ليقصد ما يتعلق بها من صفات فهو يشير إلى خطر تلك الصفات التي كان الشك فيها جديراً بأن يقتلع تلك الذات من جذورها .

إذا تقرر لدينا ما سبق كان لنا أن نتأمل قول الله: -ﷻ- ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

افتتحت سورة البقرة بهذا الاستفتاح العجيب الذي حير الأفهام و زلزل العقول، وأبان عظم الكتاب الذي تحداهم، وأشار إلى بلوغه الكمال في الهداية، فلا يتطرق إليه شك بوجه من الوجوه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وإذا تدبرنا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ لاحظنا تسليط نفي الريب على ذات الكتاب، و المراد نفي الريب عن صفاته، و المعنى: لا ريب في صحته، و لا ريب في كونه معجزاً، ولا ريب في كونه وحياً من الله تعالى، ولذا يقول الإمام الرازي: "( لا ريب فيه ) المراد نفي كونه مظنة للريب بوجه من الوجوه، والمقصود أنه لا شبهة في صحته، ولا في كونه من عند الله، ولا في كونه معجزاً."[2]

وإنما جاء التركيب على هذه الصورة من التسليط على الذات و المراد الأوصاف و الأحوال للمبالغة و التأكيد على نفي الريب عنه، و للإشارة إلى نفي تطرق الشك إلى أحواله أو صفاته، فلا يلحق بها بوجه من الوجوه لأن الذات هي القائمة بجميع الصفات والأحوال، والنفي عنها نفي عن كل ما يتعلق بها، فكان أوجز وأبلغ في الدلالة على نزاهة الكتاب، ورفعة شأنه من أن يلحق به أدنى ريب.

تآزر مع ذلك التعبير بالمصدر ( ريب ) في موضع اسم الفاعل ( مرتاب ) و ما يدل عليه من تنزيل الموجود منزلة المعدوم لعدم الاعتداد به لمشابهة حال المرتاب في وهن ريبه بحال من ليس بمرتاب أصلاً، لأنه لو خلع عنه ثوب الكبر، وتدبر القرآن العظيم بقلبه وعقله لأيقن أنه وحي من الله، ولذهب عنه كل شك وريب.[3]

---

(١) سورة البقرة الآيات ( ٢ ، ٣ ) .

(٢) تفسير الرازي ٢ / ٢٦٥ .

(٣) ينظر : التحرير و التنوير ١ / ٢٢٣ .

كذلك التعبير با سم الإ شارة الذي للبعيد ( ذلك ) أبان عن علو قدره و بعد مرتبته ، و التعريف بـ (أل) الجنسية في ( الكتاب ) أفاد القصر ، و التعبير بالمصدر ( هدىٰ ) أفاد المبالغة في حصول الهداية به حتىٰ كأنه عين الهدىٰ.[1] كل ذلك وغيره تآزر مع تسليط نفي الـشك علىٰ الذات والمراد أحوالها في بيان عظم هذا الكتاب الكريم، وعلو شأنه .

و من ذلك أيضـاً قول الحق – ﷻ – ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2]

كان لأهل الجاهلية أعمال منكرة ومسترذلة ، ومن تلك الأعمال الخبيثة أنه كانت لهم جوارٍ وبغايا يأكلون من كسبهن في الزنا، فأنزل الله – ﷻ – أول تلك السورة تغليظاً في أمر الزنا.[3]

و( سـورة ) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير : هذه سـورة، وإنما أشـير إليها مع عدم سـبق ذكرها باعتبار كونها في شرف الذكر في حكم الحاضر المشاهد[4]، و جاءت نكرة للتفخيم من شأنها، و شأن ما سيذكر فيها من أحكام .

وجاءت الصـفات المتوالية مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصـفات، فقال تعالىٰ : ﴿ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾، يقول صـاحب التحرير والتنوير: " والمقصود من تلك الأوصاف التنويه بهذه السورة ليقبل المسلمون بشراشرهم علىٰ تلقي ما فيها."[5]

---

(١) ينظر التحرير و التنوير ١ / ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ .

(٢) سورة النور الآيات ( ١ ، ٢ ) .

(٣) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يو سف بن علىٰ بن يو سف بن حيان بن أثير الدين الأندلسي ٨ / ٥ تحقيق / صدقي محمد جميل دار الفكر بيروت الطبعة ١٤٢٠هـ .

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود ٦ / ١٥٥ .

(٥) التحرير و التنوير ١٨ / ١٤٣ .

كما جاء التعبير بالماضي ( أنزلنا ) عن ابتداء النزول، وإسناد الإنزال والفرض إلى ضمير الجلالة للدلالة على العناية بها، والتشريف لها . [1]

و عُدِّيَ الفعل في قوله : ( فرضناها ) إلى ضمير السورة ، و المراد : فرضنا أحكامها ، و هذا من قبيل إسناد الأفعال إلى الأعيان والمراد بعض أوصافها أو أحوالها، و لذا يقول الطاهر بن عاشور: " وتعديه (فرضنها) إلى ضمير السورة من قبيل ما يعبر عنه من مسائل أصول الفقه من إضافة الأحكام إلى الأعيان والمراد بعض أحوالها . " [2]

وجاء التركيب على تلك الهيئة للمبالغة في إيجابها ، وإيجاب ما بها من أحكام ، ويؤيد ذلك رواية التشديد في ( فرضناها )، وقال الفراء : التشديد للمبالغة و التكثير ، و المعنى : و جوب الانقياد والقبول لتلك الأحكام . [3]

يقول الإمام الألوسي : " ( و فرضناها ) إما على تقدير مضاف أي : فرضنا أحكامها ، و إما على اعتبار المجاز في الإسناد حيث أسند ما للمدلول للدال لملابسة بينهما تشبه الظرفية ." [4]

وهكذا نص الإمام الألوسي على موضع المجاز، يكاد يمسك بالتركيب وجاء ذلك الإسناد ليشير إلى عظم تلك الأحكام وتفخيمها والقطع بوجوبها ووجوب العمل بما فيها .

يؤيد ذلك الاستعارة التبعية في ( فرضناها ) إذ الفرض في الأصل : قطع الشيء الصلب والتأثير فيه[5]، والمراد هنا الإيجاب على أتم وجه[6]، ويشعر ذلك بمدى وجوب الانقياد لتلك الأحكام وعدم

---

(١) ينظر : التحرير و التنوير ١٨ / ١٤٣ .

(٢) التحرير و التنوير ١٨ / ١٤٣ .

(٣) ينظر : تفسير الرازي ٢٣ / ٣٠١ .

(٤) روح المعاني ٩ / ٢٧٤ .

(٥) حيث شبه إيجاب الشيء إيجاباً قطعياً بقطع الشيء الصلب قطعاً مؤثراً بجامع شدة التأثير في كل ، ثم حذف المشبه، ثم استعير ( فرض ) لأوجب على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل .

(٦) ينظر : روح المعاني ٩ / ٢٧٤ .

التردد في العمل به، لأنها تعمل على صلاح المجتمع و تطهيره من الأدناس ، و تحفظه من الرذائل، وتعصمه من الفواحش .

ويؤيده كذلك تكرير فعل الإنزال في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ لإبراز كمال العناية بشأنها، والتفصيل بعد الإجمال إذ في التعبير بالجمع ﴿ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ إجمال، تفصيله ما جاء بعده من أحكام، وبذلك كان في مطلع تلك السورة براعة استهلال إذ نبهت ونوهت إلى خطر وعظم ما سيذكر بالسورة من أحكام . (١)

ومن ذلك أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ (٢)

المشركون في مكة والطائف، واليهود في المدينة كانوا يحاولون جهدهم أن يستنزلوا الر سول عن شيء من الحق الذي يأمر به، و يدعو إليه مكراً منهم و خديعة ، إذ لو وافقهم في شيء لطالبوا بآخر، ولقالوا رجع إلينا، فهو إذاً يتقول ، و ليس يوحى إليه بدليل قبوله منا كذا و كذا ، و تنازله عن كذا وكذا ، ولكن عصمة الله حفظته وعصمته من أن يميل إليهم في شيء من خديعتهم و مكرهم .

والمدقق يلحظ أن قول ﴿ ثَبَّتْنَـٰكَ ﴾ قد عدى فيه التثبيت إلى ضمير النبي – ﷺ – والمراد تثبيت فهمه ورأيه، وهذا من قبيل الحكم على الذات والمراد بعض أحوالها بحسب دلالة المقام، والمعنى: لولا أن ثبتنا رأيك و فهمك فأقررناه على ما كان عليه في معاملة المشركين لقاربت أن تركن إليهم . (٣)

---

(١) اشتملت هذه السورة على كثير من الأحكام التي تحفظ المجتمع ، ومنها حكم القذف ، و حكم اللعان ، و حكم إشاعة الفواحش بين الناس، وحكم الاستئذان في الدخول إلى بيوت الناس ، و حكم البغاء ، و غيرها من الأحكام التي تصون المجتمع .

(٢) سورة الإسراء الآيات ( ٧٣ ، ٧٤ ) .

(٣) ينظر : التحرير و التنوير ١٤ / ١٣٨

وجاء الكلام على هذا الأسلوب للإشارة إلى شدة ارتباط التثبيت بذات النبي – ﷺ – في كل أحواله و شؤونه وأعماله وأوقاته لا تنفك عنه، ولا شك أن ذلك أدل على عظم جناب النبي – ﷺ – الذي عصمه ربه، وثبته، وهداه إلى صراط مستقيم .

و جاء التعبير بالتثبيت خاصة ليخرج المعقول مخرج المحسوس فتستشعر النفوس تأييد الله – ﷻ – لنبيه، إذ في الكلمة استعارة تمثيلية[1] أكدت هذا المعنى ، و صورته للعقول و الأذهان.

كما أن في إسناد التثبيت إلى الله – ﷻ – جعلنا نستشعر عظم قدر الحبيب المصطفى ومدى مكانته ومنزلته عند ربه – ﷻ – .

ولنا أن نلاحظ التعبير بالشرط ( لولا ) ، و التعبير بالركون وهو أدنى الميل ، و التعبير بـ ( كاد ) الدالة على المقاربة، للدلالة على أن العصمة أدركت النبي – ﷺ – فمنعته من أن يقرب أدنى الأدنى من الميل، فضلاً عن كون المقاربة تعنى مشروع فعل لكنه لم يحدث، للإشارة إلى أن طبيعة النبي – ﷺ – سليمة بفطرتها ، و زادتها العصمة تثبيتاً و قوة على الحق .[2]

و منه أيضاً قول الله – ﷻ – : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[3]

سأل الكافرون عن العذاب الذي طالما حدثهم عنه النبي – ﷺ – فأجاب الله – ﷻ – عن هذا السؤال بأنه نازل بالكافرين في الآخرة ، ولا يستطيع أن يدفعه عنهم أحد من الله ذي القوة القاهرة – ﷻ – .

هذا، و قد اختلف العلماء في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ فمعظم السلف يعدون ذلك من المتشابه تنزيها للحق تبارك وتعالى عن المكان و الجسمية و اللوازم التي لا تليق بشأن الألوهية .

---

(١) حيث شبه حال البقاء على الرأي من غير تحول عنه بحال الثبات في المكان بجامع الحال الدالة على الثبات و الاستقرار في كل، ثم حذف حال المشبه، ثم استعير حال المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية .

(٢) ينظر : روح المعاني ١٥ / ١٢٨ .

(٣) سورة المعارج الآيات ( ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ) .

ومن العلماء من قال: إن الضمير في (إليه) عائد إلى عرشه تعالى وحيث يهبط منه أوامره سبحانه .

و منهم من قال : إن الضمير في ( إليه ) عائد إلى محل الملائكة – عليهم السلام – من السماء .

و منهم من قال : إن الضمير في ( إليه ) عائد إلى مضاف محذوف ، و التقدير : محل بره و كرامته – ﷻ – .[1]

و الذي يميل إليه الباحث أن ذلك من قبيل تعلق الأحكام بالذوات و المراد بعض أوصافها ، وعليه يكون المعنى: تعرج الملائكة و الروح إلى محل مناجاته و محل بره و كرامته .[2]

وجاء الكلام على تلك الهيئة التركيبية لما في ذلك من الإيجاز البليغ الذي يعجز قلم البشر عن بيانه، إذ دل على تعدد الكرامات، وتنوع العطاءات ، و جزيل النعم ، و فيض الرحمات التي ينالها أصحاب هذا المقام الأسمى و المحل الأعلى، فأشار إلى التشريف والتعظيم الذي يناله أصحاب تلك المعارج من الملائكة ومن خصهم الحق – ﷻ – بمنازل التشريف والرفعة .

وليس أدل على عظمة ذلك العروج من كونه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، و لذا قيل: "و هذه تقريبات لنهاية عظمة تلك المنازل و ارتقاء أهل العالم الأشراف إليها ، وعظمة يوم وقوعها."[3]

و منه أيضاً قول الحق – ﷻ – : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾[4]

فهذه الآية ترينا البون الشاسع بين ظلام الضلال و نور الهدى و ضيائه ، فالمشركون المكذبون ينكرون الساعة، ويظنونها أوهاما فيستعجلونها تكذيباً و استهزاءً ، و أما المؤمنون فيؤمنون بقيامها وهم على خوف ووجل من أهوالها و شدائدها .

---

(١) ينظر : روح المعاني ١٥ / ٦٤ .

(٢) ينظر : التحرير و التنوير ٢٩ / ١٥٧ .

(٣) التحرير و التنوير ٢٩ / ١٥٧ .

(٤) سورة الشورى آية ( ١٨ ) .

والمتأمل قوله تعالى ﴿ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ يجد أن الإشفاق قد جعل من ذات الساعة ، وإشفاق المؤمنين ليس من ذات الساعة، ولكن من أهوالها و شدائدها ، و ذلك من قبيل تعلق الأحكام بالأعيان و المراد بعض أحوالها .

وجاء التعلق بالذات هنا لإفادة التفخيم و التهويل لأهوال و شدائد ذلك اليوم، ولذا قيل " وإنما جعل الإشفاق من ذات الساعة لإفادة تعظيم أهوالها حتى كأن أهوالها ذاتها على طريقة إسناد الحكم ونحوه إلى الأعيان نحو قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾. [1]

وجاء التعبير بالإشفاق دون الخوف؛ لأن الإشفاق عناية مختلطة بخوف فأشار إلى أن المؤمنين مع خوفهم من الآخرة حريصون على اغتنام بقائهم في الدنيا في العمل الصالح والتوبة.[2]

---

(١) التحرير و التنوير ٢٥ / ٧٠ .

(٢) ينظر : التحرير و التنوير ٢٥ / ٦٩ .

## المبحث الثالث : في مقام الذم و التحقير :

و مما جاء على هذا الأ سلوب في ذلك المقام قول الحق – ﷻ – : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .(١)

عدد الحق سبحانه في الآيات التي تسبق هذه الآية ما أنعم به على بني إسرائيل و ذكر ما قابلوها به من كفران، فلم يكن لتلك النعم التي أسبغها الله عليهم من شكر عندهم إلا اتخاذ العجل إلهاً يعبدونه من دون الله، ولم تزدهم الآيات البينات الدالة على دعوة موسى إلا انهماكاً في الشرك وتوغلاً في الوثنية، وكل ذلك دال على قسوة قلوبهم ، و فساد عقولهم .

و المتأمل في قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ يجد أن الإشراب قد جاء متعلقاً بذات العجل، و المراد بعض أحواله، والمعنى: و أشربوا في قلوبهم ، عبادة العجل أو تأليه العجل .(٢)

وجاء التركيب على هذه الصورة ، وأخرج الكلام هذا المخرج للإ شارة إلى مدى غفلتهم و شدة عمايتهم، لأن هذا الأمر من القبح بمكان ، فلا يخفى على من له عقل ، فكيف خفي عليهم وبين ظهرانيهم الأنبياء .

كما يدل هذاً التعلق بالذات على مدى تمكن هذا الرجس منهم ، و تعلقهم به تعلقاً شديداً ، ولذا جاء التعبير بالا ستعارة التمثيلية في ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ ﴾(٣)، وجيء بالفعل مبنياً للمجهول، وكأنه لشدته وتمكنه بمثابة الأمر الذي لا اختيار لهم فيه، فأبان عن شدة سكرتهم و انطماس بصيرتهم .

---

(١) سورة البقرة آية ( ٩٣ ) .

(٢) ينظر التحرير و التنوير ١ / ٥٩٣ .

(٣) حيث شبه هيئة تداخل و تغلغل تأليه العجل و عبادته من قلوبهم بهيئة تداخل الصبغ في الثوب ، بجامع الهيئة الدالة على كمال المخامرة و الإشراب في كل ، ثم حذفت هيئة المشبه ، و استعيرت هيئة المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية ويصح جعل الاستعارة تبعية في فعل الإشراب ، و يكون مستعاراً لمعنى التغلغل و التداخل .

ثم أبانت الآيات عن موضع هذا الإشراب ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ ﴾ للدلالة على استقراره و ثباته في قلوبهم ، و أي عماية بعد ذلك تسلب العقل .

ثم ختمت الآيات بالتهكم مما آل إليه حالهم في قوله : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ففي إضافة هذا الأمر القبيح المسترذل إلى إيمانهم و جعله آمراً به تهكم منهم ، وفي إضافة الإيمان لهم تهكم ثان، و في التقييد بـ ( إن ) الشرطية ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تشكيك في إيمانهم، واستبعاد له ، و قدح في صحة دعواهم . (١)

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ (٢)

يبسط الله – ﷻ – الرزق لمن يشاء ، و يقدره على من يشاء ، بقطع النظر عن كونه مؤمنا أو كافراً، لأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة و كل إنسان سواء وسع عليه الرزق أو ضيق هو في اختبار وابتلاء فليس البسط تكريماً ، ولا التضييق إهانة ، و لكنها حكمة المولى – ﷻ – ، وقد فرح المشركون بمتع الدنيا وملذاتها، ولا وزن لمتاع الدنيا الحقير الزائل بجانب نعيم الآخرة العظيم الدائم.

و إذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ رأينا الفعل ( فرحوا ) قد جاء متعلقاً بذات الحياة الدنيا، والمراد ليس ذاتها ، و إنما بعض أحوالها وهي : متعها و ملذاتها ، و

يقول الإمام الألوسي :" ﴿ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي بما بسط فيها من النعيم ، لأن فرحهم ليس بنفس الدنيا، فنسبة الفرح إليها مجازية ." (٣)

---

(١) ينظر الكشاف ١ / ١٦٦ .

(٢) سورة الرعد آية ( ٢٦ ) .

(٣) روح المعاني ٧ / ١٤٠ .

وجاء التعلق بالذات هنا للإشارة إلى شدة ارتباط الكافرين بها و انغماسهم في ملذاتها و شهواتها، فصاروا كالبهائم التي لاهم لها سوى المطعم و المشرب و الشهوات المادية، ولا شك أن ذلك فيه من الذم والتحقير ما فيه .

ثم أردفت هذه الجملة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ ولولا تلك الجملة لعظمت الحسرة في القلوب، لقد جاءت لتشفي النفوس و تنزع ما فيها من حزن على فوات أي حظ من حظوظ الدنيا لأنه إذا قيس بنعيم الآخرة الدائم الكامل كان لا وزن له .

وعليه فقد نكرت كلمة ( متاع ) للتقليل و التحقير ، و جاء التعبير بها خاصة لأن المتاع ما يتمتع به مما لا يبقى ، ولذا يقول الشاعر : (١)

تمتع يا مشعث إن شيئاً * سبقت به الوفاة هو المتاع

و من ذلك أيضاً قوله لصاحبك و قد تعرض له من يؤذيه بالقول أو الفعل :

دعك منه و لا تأبه به

فأنت لا تقصد أن يدعه و يتنحى عن ذاته ، لأن هذا قد لا يكون في مقدوره ، ولكن تقصد ألا يكترث بأقواله، ولا يأبه بأفعاله ، و من ثم يكون قد تسلط الفعل على الذات ، و المراد ما يتعلق بها من أحوال و إنما جاء التركيب على تلك الصورة للإشارة إلى تحقير خصمه ، و أن مثله لا وزن له، وجدير أن يترك بالكلية، و لا يشغل بمثله الفكر و الخاطر .

فإذا علمنا ذلك كان لنا أن نتأمل قول الحق سبحانه: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ (٢) يأمر الله – ﷻ – حبيبه و مصطفاه – ﷺ – ألا يأبه بما يقول الكافرون من أكاذيب، وألا يكترث بما يأتون به من أفعال لا خير فيها، حتى يلاقوا ما يستحقون من عذاب يوم القيامة، وعندها سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

---

(١) الأصمعيات اختيارات أبي سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي صـ/ ١٤٨ تحقيق / أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون دار المعارف .

(٢) سورة الزخرف آية ( ٨٣ ) ، و المعارج آية ( ٤٢ ) .

و المتأمل قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ يجد أن الفعل ( ذر ) قد عدىٰ إلىٰ ضمير الكافرين، وهو من قبيل توجه الفعل إلىٰ الذات و المراد توجهه إلىٰ بعض أحوالها التي لها اختصاص بذلك الفعل مثل قوله تعالىٰ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [1] .

والتقدير : فذر خوضهم و لعبهم ، و إنما جاء الأمر متوجهاً إلىٰ الذات دون ما يتعلق بها من أحوال للإشعار بالسخرية والتهكم منهم ، و بيان مدىٰ هوانهم و حقارتهم ، إذ هو رد علىٰ غرورهم وتكبرهم فمثلهم حقيق بأن يترك بالكلية، و لا يلتفت إليه أصلاً .

و كني بتركهم في خوضهم و لعبهم بالإعراض عنهم، كما أن الأمر فيه من التهديد ما يثير كوامن الخوف والفزع لديهم من شدائد ذلك اليوم .

و(حتىٰ) متعلقة بالفعل (ذرهم) والمراد بالتقييد بتلك الغاية الكناية عن دوام عدم الاكتراث بأفعالهم وأقوالهم حتىٰ يلقوا عاقبتهم الوخيمة ، و مصيرهم الأليم . [2]

و أضيف اليوم إلىٰ ضميرهم في قوله : (يومهم) لأدنىٰ ملابسة لأنهم اشتهروا بإنكاره، وعرفوا بالذين لا يؤمنون بالآخرة، وثم وصف هذا اليوم بقوله (الذي يوعدون) للتفخيم والتهويل من شأنه . [3]

و من ذلك أيضاً قول الحق تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [4]

تكشف تلك الآية عن وجه بعض المنافقين الذين قد نعجب بطلاقة لسانهم وحسن بيانهم ، مع أنهم لا يتكلمون إلا ليحظون بشيء من أعراض الدنيا الفانية ، تجد الواحد منهم لا يجد غضاضة في أن يشفع كل كلام له بقوله: يعلم الله هذا، ويشهد أني صادق ، حتىٰ يصدقه الناس ، بينما هو في

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٩ / ١٨٢ .

(٢) ينظر : التحرير و التنوير ٢٩ / ١٨٢ .

(٣) ينظر : التحرير و التنوير ٢٧ / ٨٠ .

(٤) سورة البقرة الآيات ( ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ) .

الحقيقية كاذب وتراهم إذا ذكروا بتقوىٰ الله غضبوا لذلك أشد الغضب ، ومنعهم غرورهم وكبرياؤهم عن قبول الموعظة وتمادوا في غيهم و فسادهم. (١)

إن من أسوأ صفات هؤلاء المنافقين أنهم إذا ذكروا بالله – ﷻ – لا يرتدعون، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ فإذا تأملنا موعظة الناصح له في قوله تعالىٰ : ﴿ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ نجد أن التقوىٰ قد تعلقت بلفظ الجلالة الدال علىٰ الذات الأعظم جل شأنه ، و معلوم أن التقوىٰ هي أن تجعل بينك وبين ما تخشاه وتخاف منه وقاية تقيك منه فلا يصل إليك .(٢)

و من ثم كان لا يصح حمل الكلام علىٰ ظاهره ، لأنه لا عاصم من أمر الله ، و كان المراد من أتقاء الله – ﷻ – اتقاء غضبه سبحانه يقول الطاهر بن عا شور: " و المراد من اتقاء الله اتقاء غضبه، فهذا من تعليق الحكم باسم الذات والمراد حال من أحوال الذات . " (٣)

و إنما جاء الكلام علىٰ تلك الهيئة التركيبية فعلق الاتقاء بلفظ الجلالة للمبالغة في التحذير من شدة هول ذي الجلالة و عقا به، إذ إن في ذكر اللفظ الدال علىٰ الذات الأعظم دلالة علىٰ شدة الترهيب، لأن في ذكره تلويحاً بعظم عقابه و شدة غضبه ، إذ صار الحديث متوجهاً إليه و مقصوداً به، ولا شك أن الملك إذا علم أن أحداً من رعاياه أرهب به فلم ينزجر، و خوف باسمه فلم ينته كان غضبه أكثر، وانتقامه أشد منه إذا خوف بأحد جنوده و أمرائه .

---

(١) نزلت الآية في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو المنطق ، كان إذا لقىٰ رسول الله – ﷺ – ألان له الكلام ، و ادعىٰ أنه يحبه ، و أنه مسلم و قال : يعلم الله أني صادق ، و لا شك أن مثل هذا الكلام عام في المنافقين ، فأنت ترىٰ منهم قولاً معسولاً، و إذا اختفوا عن الأنظار فعلوا فعلاً قبيحا . ينظر: أ سباب النزول لأبي الحسن علىٰ بن أحمد محمد بن علىٰ الواحدي النيسابوري

صـ/ ٣٩ مؤسسة الحلبي و شركاه للنشر و التوزيع .

(٢) ينظر : لسان العرب مادة : وقي .

(٣) التحرير و التنوير ٢٩ / ١٨٩ .

كما أن في هذا التعلق إيجازاً بالقصر أفاد مع التحذير و الترهيب التحريض و الحث على التقوى، والترغيب في الإقبال على الله – ﷻ – لأن الأمر بتقواه سبحانه يتضمن معنى المراقبة ، و التذكير بأن الله مطلع على عبده ، و يعلم سره وعلانيته، و محاسبه على عمله ، و مجازيه به ، و من ثم كان التحذير أشد، و الموعظة أوقع في النفسي .

و قد أبان الحق سبحانه عن شدة غرور و أنفة ذلك المنافق ، وجعل علامة ذلك أنه إذا ذكر بالحق – ﷻ – أبى واستكبر وامتلأ غطرسة و إعجاباً بنفسه ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

فجاء التعبير بـــ ( الأخذ ) للإشارة إلى مدى استيلاء الكبر عليه و إحاطته به [1] فالمغرور حينما يستثار تجده كالوحش الهائج لا يستطيع أن ينفلت من غضبه و يهدأ حتى يثأر لنفسه .

ووســط هذا الغرور و تلك الأنفة أبان الله – ﷻ – ما أعده له من مكان يليق به فقال: ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ فجاء التعبير بالمهاد تهكماً منه [2] وتعريضــاً بما كان يعده هذا المنافق لنفسه في الدنيا.

هذا، والمتدبر كتاب الله – ﷻ – يجد تعلق فعل التقوى بلفظ الجلالة في آيات كثيرة [3] و قد على تلك الهيئة التركيبية للتأكيد على تحقيق التقوى و الاجتهاد في تحصــيلها ، والتحذير من غضــب الجبار سبحانه.

---

(١) و في كلمة چ ك چ مجاز مرسل علاقته المسببية ، إذ أخذ الشيء مسبب عن الاستيلاء عليه و الإحاطة به . ، ويصح أن يكون استعارة تمثيلية حيث شبه حال المغرور الذي يسيطر عليه كبره فلا ينفك عنه بحال الأسير المقيد بالأغلال لا يستطيع الإفلات منها بجامع الحال الدالة على شدة التلازم و الارتباط في كل، ثم حذفت حال المشبه، واستعيرت حال المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية .

(٢) حيث شبه مستقر المتكبر المعد له في نار جهنم بالمهاد الذي يهيأ و يعد و يفرش للمرء المنعم ، بجامع التضاد المنزل منزلة التناسب ، ثم حذف المشبه ، و استعير لفظ المشبه به له على سبيل الاستعارة التهكمية .

(٣) ومن ذلك سورة نوح الآية ( ٣ ) ، و الروم ( ٣ ) ، الأنعام ( ٧٢ ) ، و الحجرات ( ١ ) و غيرها كثير

ومن الشواهد أيضاً في هذا المقام الحق – ﷻ –: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾(١).

لقد كان لدىٰ العرب من الفصاحة البلاغة الفطرية ما يمكنهم من تدبر القرآن الكريم ومعرفة أنه الحق من ربهم، فهو المبرأ من سائر العيوب التي تعتري كلام البشر، و قد شهدوا له بذلك، ولكنهم كذبوا وأعرضوا كبراً وعناداً، و لقد جاءهم الرسول الكريم الذي عرفوه قبل بعثته بصدقه وأمانته وجميل خصاله، ولكنهم أنكروا رسالته، ورموه بالأكاذيب و الأباطيل.

و إذا أطلنا النظر في قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ وجدنا تعلق ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ وتسلطه علىٰ الضمير العائد علىٰ ذات رسول الله – ﷺ – وهذا من إسناد الحكم إلىٰ الذات والمراد بعض صفاتها، وهذه الصفات هي: الصدق، و الأمانة، وأنه ليس في عداد الشعراء.(٢)

و جاء التركيب علىٰ تلك الهيئة التركيبة للمبالغة في الإنكار عليهم و التوبيخ لهم، إذ كيف ينكرون رسالته و يرمونه بالسحر والكذب وهم الذين لقبوه بالصادق الأمين ؟! إن إنكارهم لرسالته لهو إنكار لذاته، فكأنهم يدعون أن من يدعوهم إلىٰ الإيمان ليس هذا الذي تربىٰ بينهم، وعرفوا جميل صفاته، ولا شك أن ذلك فيه من التوبيخ و الإنكار ما فيه، وقد زاد من حدة الإنكار اقتران الضمير باللام، و تقديم الجار و المجرور علىٰ الفعل.

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ( ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ) .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٨ / ٨٩ .

## المبحث الرابع : في مقام التحذير و الإنذار :

و من ذلك قول الله – ﷻ – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾[1]

تقف تلك الآية في وجه أهل الكفر و الجحود الذين يستكثرون بأموالهم و يتفاخرون بذويهم ، لتخبرهم بأن ما يتفاخرون به من مال وبنين لن ينفعهم يوم القيامة كما كانوا في الدنيا ، وسوف يلقون أشد العذاب.

والمراد بقوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: من أمر يضاف إلى الله تعالى لأن تعلق الفعل ﴿ تُغۡنِيَ ﴾ تعليقاً ثانياً با سم ذات لا يقصد منه إلا أخص حال ا شتهرت به، أو في الغرض المسوق له الكلام ، فيقدر معنى اسم مضاف إلى اسم الجلالة.[2]

فذهب الزمخشري إلى أن (من) للبدل، والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعته شيئا، أي: بدل رحمته وطاعته . [3]

وذهب ابن عطية إلى أن (من) لابتداء الغاية ، و المعنى : لن تغني منهم من غضب الله ، أو من عذابه أي غناء مبتدأ من ذلك . [4]

و أكثر النحاة ينكرون إثبات البدل ل (من) وذهبوا إلى أن الأولى حملها على معنى ابتداء الغاية، فهو الأقرب والأليق في الظاهر بتهويل أمر الكفرة، والأنسب بقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ . [5]

---

(١) سورة آل عمران آية ( ١٠ ) .

(٢) ينظر : التحرير و التنوير ٣ / ١٢٧ .

(٣) ينظر : الكشاف ١ / ٣٣٩ .

(٤) ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية ١/ ٤٠٥ الأندلسي . المحقق / عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

(٥) ينظر : روح المعاني ٣ / ٩٣ .

وهذا التعلق باللفظ الدال على الذات الأعظم يشير إلى عظم عقابه ، و شدة عذابه و نكاله ، إذ صار الحديث مقصوداً به، ومتوجهاً إليه، كما أن في التعبير إيجازاً بالقصر، لأن في التحذير من ذي الجلال سبحانه تحذيراً من كل جنده، فكان أرهب وأخوف ، و أشد في التحذير والإنذار . وجاء لفظ الجلالة دون لفظ ( الرب ) للإشارة إلى صفات الجلال و العزة و الغلبة .

ثم لنا أن نتأمل و نتدبر ما تعاضد مع ذلك في بيان التحذير في قوله : ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ من التعريض بما كانوا يفعلون من الدنيا، فلقد كانوا يتفاخرون و يتناحرون بأموالهم و ذريتهم ، و يعولون عليها في الخطوب النازلة والشدائد، فإذا لم تجد لهم نفعاً وهي أقرب الطرق إلى دفع المضار فما عداها بالتعذر أولى .

وتنكير كلمة (شيئا) وما أفاده من التحقير، والنفي المؤكد ب(لن) لتنفي أن تغني عنهم أقل غناء أو أضعفه.

كما جاء اسم الإشارة ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيلقون من جزاء و هو أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها في الحطب اليابس، فإن ذلك دال على كمال ملابستهم بالنار ، وجاء الجزاء بالجملة الاسمية للدلالة على تحقق الأمر و تقرره . (١)

ومثله كذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٢)

فالمراد بقوله تعالى : ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي ليس لهم عاصم يعصمهم من انتقام الله وجزائه، فهذا من تعليق الفعل باسم الذات ، والمراد بعض احوالها مما يدل عليه السياق . (٣)

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٧ / ١٥٣ ، و أبو السعود ٢ / ١٠ .

(٢) سورة يونس آية ( ٢٧ ) .

(٣) ينظر التحرير و التنوير ١١ / ١٤٨ .

و في ذلك التركيب على تلك الهيئة إشعار بشدة الوعيد ، و التئيس من وجود مانع لهم يحول بينهم وبين نزول العذاب بهم يومئذ ، لأن الطالب لهم هو العزيز الجبار - ﷻ - .

كما أن النفي لم يسلط على المقدر المحذوف ( الغضب أو العذاب أو الانتقام ) و سلط على لفظ الجلالة وكأن العزيز المنتقم سبحانه هو من يباشر عذابهم بنفسه دون أحد من ملائكته ، ولا شك أن ذلك فيه من الوعيد ما يخلع القلوب ، و يجعلها على وجل من غضب الجبار سبحانه .

ومما جاء في هذا المقام أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١)

كان بين المهاجرين و المشركين صلات و أنساب ومودات و مخالطات ، فكانوا بمظنة الموالاة مع بعضهم، ولذا نهى الله - ﷻ - المؤمنين أن يتخذوا الكفار و المشركين أولياء من دون المؤمنين ، لأن مصلحة الإسلام مقدمة، ومن يفعل ذلك فليس مطيعاً لله ، و لا ناصراً لدينه .

لقد توعد الله - ﷻ - من يوالي المشركين، و يقدم مصلحتهم على مصلحة الدين، ويقدمهم طاعتهم على طاعة الله ورسوله بقوله :﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ .

وجاء النفي مسلطاً على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ للدلالة على الانفصال التام والانقطاع بالكلية عن ولاية الله ورضاه ورحمته، وذلك لأن ﴿ مِنَ ﴾ مجازية في الاتصال.(٢)

---

(١) سورة آل عمران آية ( ٢٨ ) .

(٢) حيث شبه ارتباط الشيء بالشيء و اتصاله به بارتباط و اتصال البعض بالكل بجامع شدة الارتباط والاتصال في كل، ثم استعيرت (من) من جزئي من جزئيات المشبه به لجزئي من جزيئات المشبه على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف.

وبعد أن أخبر الحق سبحانه بانقطاع من يوالي المشركين عن جنابه ، و بعدهم عن محل ولايته، حذر من يفعل ذلك بقوله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ وفي الكلام مضاف محذوف، لأن التحذير: إنما هو من العقاب والتنكيل ونحوه، والتقدير : ويحذركم الله عقابه.(١)

وقد جعل التحذير هنا من نفس الحق سبحانه أي ذاته ليكون أعم في الأحوال، لأنه لو قيل : ويحذركم الله غضبه لتوهم أن له رضا لا يضر معه تعمد مخالفة أوامره، والعرب إذا ارادت تعميم أحوال الذوات علقت الحكم بالذات.(٢)

و هذا إعذار و موعظة و تهديد بالعقاب على مخالفة ما نهاهم الله عنه ، و معلوم أن الصادر عنه يكون أعظم أنواع العقاب، وأنه لا قدرة لأحد على دفعه و منعه، لأن شدة العقاب بقوة المعاقب وقدرته .(٣)

كما أن في ذكر النفس تعريضاً بأولئك الذين يوالون المشركين خوفاً منهم و حذراً من عقابهم، أي: لا ينبغي للمؤمن أن يحذر من غضب أحد ، و إنما عليه أن يراقب الله – ﷻ – ويكون جل همه البعد عن محل سخطه و غضبه و عقابه .

و من ذلك أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾(٤)

إن الذين يغدرون و يخونون و ينقضون العهود و المواثيق أولئك شر المخلوقات ، و على المؤمن إذا كان في الحرب معهم وأمكنته الفرصة من أن يكفي الناس شرهم فعليه أن يضربهم الضربة القاسمة التي تفرق جمعهم ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه الغدر والخيانة .

---

(١) ينظر : التحرير و التنوير ٣ / ٩٦ .

(٢) ينظر : التحرير و التنوير ٣ / ٢٢١ .

(٣) ينظر : تفسير أبي السعود ٢ / ٢٣ .

(٤) سورة الأنفال الآيات ( ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ) .

وقد جعل القرآن الغادرين الخائنين شر الدواب للإشـارة إلى أنهم بلغوا درجة الحيوانات بل هم أشد منها خسة ورزالة وحقارة وضعة. (١)

و في قوله تعالى : ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ جعلت ذوات المتحدث عنهم من الخائنين سبب التشريد باعتبارها في حال التلبس بالهزيمة والنكال، فهو من إناطة الأحكام بالذوات والمراد بعض أحوال الذوات، و التقدير: فشرد بتشريدهم والتنكيل بهم من خلفهم . (٢)

وإنما جعل التشـريد متعلقاً بذواتهم و كأنهم هم الذين فعلوه ، و المراد ما وقع عليهم من الهزيمة والنكال للإيذان بشـدة ما ينبغي أن يلاقيه هؤلاء الخائنون ، و يقع عليهم من المؤمنين في الحرب من التشـريد والفتك حتى كأنهم من شـدة و هول ما لاقوا صـاروا يخيفون من وراءهم، ويحذرونهم من مغبة قتالهم ونزالهم، ولا شـك أن ذلك فيه من التهديد و الوعيد ما فيه ، و لذا يقول الإمام البقاعي: " فالمراد المبالغة في الإيقاع بهم إذا ضربوا ضربة تفرقوا على غير وجه ولا انتظام ، فعلم من شردوا إليه ممن وراءهم أنه قد تناهى بهم الذعر ، فذعر هو ، فوقع في الشرود قوة أو فعلاً ." (٣)

ومن ذلك أيضاً قول الله – ﷻ – ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤)

هذه الآية تحذير للمؤمنين من أن يحيدوا عن طريق الهدى بعد أن عرفوه، وذاقوا طعم الإيمان، ومن يفعل ذلك فمثله كمثل المنافق الذي أضـاع الإسـلام بعد تقلده ، و ليس هناك أشـنع من هذا الفعل، ولا أكثر ضلالاً وفسقاً من صاحبه .

و إذا تمعنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾ و جدنا أن الفعل ﴿ نَسُوا ﴾ قد جاء منوطاً بلفظ الجلالة، بينما التقدير : و لا تكونوا كالذين نسوا حدود الله و أوامره و نواهيه ، وفهو من قبيل إضافة الحكم إلى الذات والمراد بعض ما يتعلق بها .

---

(١) و عليه يكون فيها تشبيه ضمني .

(٢) ينظر : التحرير و التنوير ١٠ / ٥٠ .

(٣) نظم الدرر ٨ / ٣١١ .

(٤) سورة الحشر آية ( ١٩ ) .

و جاء الإسناد على تلك الهيئة فعلق النسيان باسم الذات الأعظم لبيان فظاعة هذا الأمر وفداحته، لأن مثل هذا لا ينبغي ان يكون لأنه ظاهر القبح لكل أحد، وللتأكيد على استفظاع هذا النسيان وضع المظهر موضع المضمر. [1]

ثم جاء الجزاء من جنس العمل فقال تعالى: ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ والمراد بنسان النفس : نسيان ما فيه نفعها وصلاحها من الأعمال الصالحة ، والتقدير : نسوا حظوظ أنفسهم . [2]

و جاء الجزاء على نفس الهيئة التركيبية، فسلط النسيان على الذات في إ شارة إلى أن نسيان العمل الصالح ليس نسياناً لحظ النفس وحقها فقط، بل هو نسيان للنفس برمتها ، فكأنها ضاعت وتاهت من صاحبها في صحراء مهلكة، فلا يرجى له العثور عليها .

و لا شك أن هذا الإسناد التركيبي ممتلئ بالدلالات القوية المؤثرة التي توحي بشدة غفلة هؤلاء العصاة، وعظم عمايتهم فلم يعد هناك أمل في استفاقتهم من تلك السكرة الغافلة المعرضة .

لقد ا ستحق هؤلاء أن يشهر بهم حتى يكونوا عبرة و عظة لغيرهم فجاءت الإ شارة التي للبعيد في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾، وجاء ضمير الفصل للتأكيد على أنهم قد بلغوا في الفسق حداً لا يوصف .[3]

ومما جاء في هذا المقام كذلك ما روى عن أبي هريرة – ﷺ – عن رسول الله – ﷺ – قال: "دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ، فلا هي أطعمتها ، و لا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً. [4]

---

(١) كان من الممكن أن يكتفي بالضمير لأن لفظ الجلالة قد ذكر في الآية السابقة لتلك الآية .

(٢) ينظر : تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي ٢٨ / ٥٢ مطبعة مصطفي البابي الحلبي و أولاده بمصر- الطبعة الأولى ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م .

(٣) أفاد ضمير الفصل القصر الادعائي ، و كأن فسق غيرهم ليس بفسق جانت فسقهم ينظر: التحرير و التنوير ٢٨ / ١١٤ .

(٤) صحيح مسلم كتاب / التوبة باب / سعة رحمة الله تعالى ٨ / ٩٨ رقم ( ٨٠٧٢ ) .

يحذر النبي - ﷺ - في هذا الحديث من انتزعت الرحمة من قلبه ، فيستقوى على الضعيف ، كمن يحبس دابة ضعيفة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها الأذى معتقداً هوانها ، واستصغار شأنها ، فليس معنى أن من قتل هذا الحيوان الضعيف لا يؤاخذ في الدنيا أن ذنبه هين ، و أن أمره يسير بل قد يكون سبباً لدخول النار، واستحقاق العذاب في الآخرة .

و ليس أدل على ذلك من التعبير بالفعل الماضي ( دخلت ) في موضع المضارع للدلالة على تحقق وقوع ذلك الجزاء، و أنه واقع و صائر لا محالة .

كما جاء التسليط هنا على اسم الذات ( في هرة ) دون التعبير ( في شأن هرة ) أو ( في تعذيب هرة ) للتأكيد على حرمة تلك النفس ذات الكبد الرطبة ، والتأكيد على تعلق ذلك الجزاء العظيم بالاعتداء على هذا الحيوان الضعيف الذي قد يعتقد البعض هوانه .

كذلك جاء التعبير بحرف ( في ) دون ( الباء ) و إن كان الحرفان يفيدان معنى السببية للإشعار بقوة الارتباط بين الفعل و الجزاء ، ومدى تمكن هذا الأمر و جدراته من استحقاق فاعله العذاب .

و أشار لذلك الإمام المناوي فقال : " و ليست ( في ) هنا للظرفية ، و لا لمجرد السببية ، وإن كانت السببية أصلها، ألا ترى إلى خبر ( دخلت امرأة النار في هرة ) كيف تجد فيه معنى زائداً على السببية، فقولك: فعلت ذلك في مرضاتك ، فيه معنى زائداً على فعلته لرضاك ، و إذا قلت : أوذيت في الله، لا يقوم مقامه: أوذيت لله."[1]

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف تاج العارفين محمد بن على بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري ٥ / ٢٧٨ المكتبة التجارية الكبرى الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ .

و قد جاءت (في) دالة على السببية [1] ومسلطة على الذات كثيراً في القرآن الكريم . [2]

و من ذلك أيضاً قول الناصح أخاه : جاهد في الله، وتصدق في الله ، وأحبب من أحببت في الله، وأبغض من أبغضت في الله .

حيث جاءت الأفعال في كل ذلك منوطة بلفظ الجلالة ، بينما الأصل أن يقال : جاهد ابتغاء رضا الله، وتصدق ابتغاء رضا الله وأحبب من أحببت ابتغاء رضا الله ، وأبغض من أبغضت ابتغاء رضا الله .

وجاء الكلام على تلك الهيئة التركيبية ترغيباً للمخاطب و حثا له و تحضيضا على طلب وتحصيل تلك المحامد التي تكون سبباً في رضا الله – ﷻ – إذ إن في هذا التسليط إشارة إلى مدى جدارة تلك الخصال الحميدة من نيل عميم الخيرات و عظيم البركات في الدنيا و الآخرة .

---

(١) ( في ) هنا للظرفية المجازية ، حيث شبهت السببية بالظرفية ، بجامع شدة الارتباط في كل ، ثم استعيرت (في) من جزئي من جزئيات المشبه به إلى جزئي من جزئيات المشبه به على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف .

(٢) من ذلك قول الله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ سورة يوسف آية (٣٢) أي لمتنني بسبب أمره ، للأشعار بمدى تمكن اللوم وارتباطه بذات سيدنا يوسف – عليه السلام – و هو وقتئذ فتاها. منه أيضاً قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ سورة البقرة آية (١٧٨ ) والقصاص لا يكون في ذوات القتلى ، فتعين تقدير محذوف أي : كتب عليكم القصاص في شأن القتلى ، و جاء التسليط على الذوات ليشمل القصاص سائر شؤون القتلى ، و سائر معاني القصاص ، فهو إيجاز و تعميم ، وجاءت ( في ) لتشعرنا بمدى تمكن و ارتباط القصاص بأمر القتلى . ينظر : التحرير و التنوير ٢ / ١٧٣ .

## المبحث الخامس : في مقام النصح و الإرشاد :

ومن ذلك قول الحق – ﷻ –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[1]

أمر الله – ﷻ – المؤمنين بإصلاح أنفسهم بالعلم النافع و العمل الصالح ، و أبان لهم المنهج أنهم إذا أصلحوا أنفسهم، و قاموا بما أوجب عليهم من علم و عمل ، و تعليم و إر شاد ، وأمر بمعروف و نهي عن منكر فلا يضرهم بعد ذلك ضلال من ضل ، و حاد عن جادة الحق. وقد افتتحت الآية بالنداء المشعر بأهمية الأمر الذي يليه ، و جاء النداء بصلة الإيمان للدلالة على أن الأمر المطلوب من مقتضيات هذا الإيمان ترغيباً فيه وحثاً عليه .

ثم جاء الأمر المغرى به في قوله تعالى : ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ حيث علق اسم الفعل الأمر (عليكم) بمعنى: الزموا بالذات ( أنفسكم ) و المراد بعض أحوالها و هي الحفظ الرعاية، والتقدير: الزموا صلاح أنفسكم[2] ، لأن الإنسان لا يؤمر بأن يلزم نفسه ، ولكن يؤمر بأن يلزم أحوالاً تتعلق بها من الحفظ و الرعاية و الصيانة عما يدنسها من المعاصي و الذنوب .

وجاء التركيب على تلك الهيئة للإشعار بشدة الطلب، وكونه مأموراً به أمراً أكيداً، وأنه يجب عليه أن يحفظ نفسه من كل جانب، فلا يترك للشيطان مدخلاً قد يتسلل منه إلى نفسه، كما يشعر بما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من اليقظة والانتباه لنفسه من أن يمسها شيء من الذنوب والأوضار، ومن ثم فقد أشار أنه على نفسه بمنزلة الرقيب الحافظ ، الذي لا ينبغي أن يغفل ، وما كانت لتتأتى كل تلك المعاني بغير هذا التركيب.

---

(١) سورة المائدة الآية ( ١٠٥ ) .

(٢) ينظر حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي و كفاية الراضي على تفسير البيضاوي للقاضي / شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ٣ / ٢٩٠ ، ضبطه و خرج آياته و أحاديثه الشيخ / عبد الرازق المهدي دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧١ م .

و لذا جاء الأمر بطريق ا سم الفعل ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ للإ شعار بأهميته، وللتأكيد على معنى وجوبه[1] يقول الإمام الطاهر بن عاشور: " قالوا عليك كذا ، لأن تلك الذوات لا توصف بالعلو على المخاطب أي التمكن، فالكلام على تقدير محذوف، و ذلك كتعلق التحريم والتحليل بالذوات في قو له تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾، و قو له تعالى ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾"[2] وقريب من ذلك ما ورى عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله – ﷺ – " تنكح المرأة على إحدى خصال : لجمالها ، و مالها ، و خلقها ، و دينها ، فعليك بذات الدين تربت يمينك . "[3]

حيث جاء قوله – ﷺ – : ( فعليك بذات الدين ) بتعليق اسم الفعل ( عليك ) بالذات ( بذات الدين ) و المراد بعض أحوالها وهو النكاح ، والتقدير : فعليك بنكاح ذات الدين ، و ذلك للإشارة إلى التأكيد على طلب ونكاح ذات الدين ، و التمسك بها ، و يؤيد ذلك مجيء( الباء ) و ا سم فعل الأمر ( عليك ) يتعدى بنفسه و عندما يتعدى بـ ( الباء ) يكون بمعنى استمسك[4] ، فأشار إلى مزيد الحث و التحضيض و الترغيب في طلبها .

ومنه أيضاً قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[5]

---

(١) حيث شبهت حال الشيء المطلوبة على وجه الوجوب بحال الشيء المتعلي غيره المتمكن منه ، بجامع الحال الدالة على كمال التمكن و الثبات في كل ، ثم حذفت هيئة المشبه ، و استعيرت هيئة المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية .

(٢) التحرير و التنوير ٧ / ٧٧ .

(٣) مجمع الزوائد و منبع الفوائد لأبي الحسين نور الدين على بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي رقم (٧٣٢٦ ) ٤ / ٢٥٤ المحقق / حسام الدين القدسي مكتبة القدس – القاهرة ١٤١٤ / ١٩٩٤ م . قال الهيثمي : رواه أحمد ، و أبو علي ، و البزار ، ورجاله رجال الثقات .

(٤) ينظر : شرح سنن النسائي المسمى ( ذخيرة العقبى في شرح المجتبى ) المؤلف / محمد بن على بن آدم بن موسى الأثيوبي الولّوى ٥ / ٢٧٥ . دار المعراج الدولية للنشر الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦ م .

(٥) سورة الأحزاب آية ( ٢٨ ) .

لم يكن أزواج النبي – ﷺ – [1] يسألنه توسعة و لا يستكثرنه من النفقة قبل أن يفيء الله عليه من أهل النضير، و قبل أن يكون له الخمس من الغنائم، فلما فتح الله عليه قريظة والنضير ، وفرق عنه الأحزاب ظن أزواجه أنه أختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله و قلن : يا رسول الله بنات كسرى وقيصر في الحلى والحلل، والإماء والخول، ونحن على ما تراه من الفاقة و الضيق ، وآلمن قبله بمطالبهن ، فأمره الله – ﷻ – أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن ، لينبههن إلى أن الله – ﷻ – قد أقامه مقاماً عظيماً ، فلا يتعلق قلبه بمتاع الدنيا إلا بما به قوام الحياة . [2]

افتتحت الآية بالنداء تنبيهاً على أهمية الأمر الآتي بعده ، و جاء النداء للنبي – ﷺ – و لم يأت لأزواجه للتعظيم من شأنه – ﷺ – و بيان فضله ، و عظم مقامه .

وجاء التقييد بالشرط ( إن ) في قوله ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ استبعاداً لأن يركن مثلهن إلى شؤون الدنيا الفانية و متعها الزائلة .

وجاء تسليط الإرادة إلى ذات الحياة الدنيا ، على سبيل إناطة الأحكام بالأعيان وهو أسلوب يقتضي تقديراً في الكلام، والتقدير : إن كنتن تردن شؤون الحياة الدنيا من متعها وملذاتها ورغائبها، وإنما جاء الأسلوب على تلك الهيئة ليشير إلى مدى تعلق النفس بها ، و إلى أن الجد في طلب متعها وملذاتها لا يقف عند حد ، و لا ينقطع عند غاية .

و بعد أن أعطى القرآن الكريم لأمهات المؤمنين الحرية الكاملة في اختيار ما يردنه ، و ما يرغبن فيه رغبهن في اختيار ما عند الله عز وجل قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

---

(١) و أزواج النبي – ﷺ – إذ ذاك تسع وهن : عائشة بنت أبي بكر ، و أم حبيبة بنت أبي سفيان ، و سورة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية و هؤلاء من قريش و من غير قريش : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، و صفية بنت جحش الأسدية ، ووجويرية بنت الحارث المصطلقية ، و صفية بنت حيي الخيبرية ينظر البحر المحيط ٨ / ٤٧٢.

(٢) ينظر : البحر المحيط ٨ / ٤٧٢ ، و التحرير و التنوير ٢١ / ٣١٤ .

فجاء التقييد بالشرط ( إن ) للإشعار بالحرية الكاملة دون أدنى حرج في الاختيار ، كذلك رأينا تعدية الفعل ( تردن ) إلى لفظ الجلالة و إلى ذات ر سول الله – ﷺ –، و عين الدار الآخرة، وكل ذلك يقتضي ـ تقديراً في الكلام والتقدير: إن كنتن تردن رضا الله – ﷻ – ورضا رسوله – ﷺ – ونعيم الآخرة، و جاء التعليق في كل ذلك بأسماء الأعيان ترغيباً و حثاً بما يجب عليهن من شدة الحرص والجد في كل ما من شأنه أن يرضي الله – ﷻ – و يرضي ر سوله – ﷺ – ويكون سبباً في الفوز بنعيم الآخرة، ولذا قيل :" و في حذف المضافات، وتعليق الإرادة بأسماء الأعين الثلاثة مقصداً أن تكون الإرادة متعلقة بشؤون المضاف إليه التي تتنزل منزلة ذاته في قضاء حق الإيجاز مع قضاء حق الإعجاز . " [1]

(١) التحرير و التنوير ٢١ / ٣١٧ .

## الخاتمة :

ذاك كان جهد الباحث الذي حاول من خلاله كشـف النقاب عن إحدىٰ قدرات لغتنا الباهرة وهي تعلق الأحكام بالأعيان والذوات و المراد بعض أوصـافها أو أحوالها ، و يمكن بعد هذا العرض التحليل بيان أهم نتائج تلك الدراسة في النقاط التالية :

- اهتم علماء أصـول الفقه بتعلق الحكم الشرـعي بالأعيان ، و كانت لهم قصـب السبق في هذا الباب .
- اختلف العلماء حول ما جاء علىٰ هذا الأسـلوب هل يعد من قبيل الحقيقة أو من قبيل المجاز؟ و يرىٰ الباحث أنه إلىٰ المجاز العقلي أقرب .
- كثر ورود هذا الأ سلوب في القرآن الكريم ، و البيان النبوي الشريف و تعددت مقاماته، وكان له في كل مقام عطاؤه الغزير .
- لا يقتصر تعلق الأحكام بالذوات و المراد بعض أوصافها أو أحوالها علىٰ الأحكام الشرعية، كما ذهب لذلك علماء أصول الفقه ، بل يتعداها لغيرها من الأحكام ، و إنما اقتصروا علىٰ الحكم الشرعي لأنه محل دراستهم و بحثهم .
- إن هذا اللون البلاغي يعد أحد الأسـاليب التركيبية الممتلئة ، و عندما جاء في القرآن الكريم رأينا قضاء حق الإيجاز مع قضاء حق الإعجاز .

و بعد، فإني أسأل الله – ﷻ – أن أكون قد وفقت في عرض و تحليل و دراسة هذا الموضوع، و أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، و الله من وراء القصد ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

كما أ سأله سبحانه الخير كل الخير لآبائنا ، و أمهاتنا ، و أ ساتذتنا ، و معلمينا ، و م شايخنا ، وذرياتنا، وجميع من لهم حق علينا و للمسلمين أجمعين ، إنه قريب مجيب .

" الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله "وصـلِّ اللهم وسـلم وبارك علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آلة وصحبه أجمعين

## فهرس المصادر و المراجع :


- إر شاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – تفسير أبي السعود لأبي السعود العمادي محمد بن محمد مصطفى دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- أ سباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد محمد بن علي الواحدي النيسابوري صـــ/ ٣٩ مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر و التوزيع .
- الأصمعيات اختيارات أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي تحقيق / أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون دار المعارف .
- أنوار التنزيل و أسرار التأويل ( تفسير البيضاوي ) تأليف / ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشـيرازي البيضـاوي المحقق / محمد عبد الرحمن المرعشـلي دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى .
- البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسـف بن علي بن يوسـف بن حيان بن أثير الدين الأندلسي تحقيق / صدقي محمد جميل دار الفكر بيروت الطبعة ١٤٢٠هـ .
- التحرير و التنوير للمؤلف / محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشـور التونسي ـ الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٤ م .
- تفسـير المراغي لأحمد بن مصـطفى المراغي مطبعة مصـطفي البابي الحلبي و أولاده بمصر ـ الطبعة الأولى ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م .
- التفسير الواضح د / محمد محمود حجازي ، دار الجيل الجديد .
- تفسير مفاتيح الغيب التفسير الكبير لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين التيمي الرازي دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ .
- التقرير و التحبير لابن أمير الحاج دار الفكر بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .
- حاشـية الشـهاب المسـماة عناية القاضي و كفاية الراضي على تفسـير البيضـاوي للقاضي / شـهاب الدين أحمد بن محمد عمر الخفاجي ، ضـبطه و خرج آياته و أحاديثه الشـيخ / عبد الرازق المهدي دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧١ م .

- رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عابدين الدمشقي الحنفي دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢ م .

- روح المعاني في تفسير القرآن و السبع المثاني المؤلف/ شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي المحقق/ علي عبد الباري عطية دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

- سنن ابن ماجة لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني باب الرجل يأمره أبوه بطلاق أمرأته تحقيق/ محمد عبد الباقي دار احياء الكتب العربية فيصل عيسي البابي الحلبي .

- شرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني مكتبة صبيح بمصر

- شرح سنن النسائي المسمى ( ذخيرة العقبى في شرح المجتبى ) المؤلف/ محمد بن على بن آدم بن موسى الأثيوبي الولّوى. دار المعراج الدولية للنسر الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦ م .

- شعب الإيمان لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني تحقيق د/ عبد العلي عبد الحميد حامد مكتبة الرشد للنشر بالرياض الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣ م .

- صحيح مسلم لأبي الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري دار الجيل - بيروت .

- فيض القدير شرح الجامع الصغير لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف تاج العارفين محمد بن على بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري المكتبة التجارية الكبرى الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ .

- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام جار الله محمود عمر الزمخشري دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثالثة ١٠٤٧هـ .

- كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي لعبد العزيز أحمد بن محمد بن علاء الدين البخاري الحنفي تحقيق/ عبد الله محمود محمد عمر ، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

- لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لأبي الحسين نور الدين على بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ، المحقق/ حسام الدين القدسي مكتبة القدس - القاهرة ١٤١٤ / ١٩٩٤ م .

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسى . المحقق / عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ .

- مختار الصحاح لزين الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي المحقق / يوسف الشيخ محمد المكتبة العصرية بيروت الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ\١٩٩٩ م .

- المستصفى لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوبي تحقيق / محمد عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولي ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني تنسيق د/ سعد بن ناصر عبد العزيز الشثري دار العاصمة السعودية الطبعة الأولى ١٤١١هـ .

- المعتمد في أصول الفقه لمحمد بن علي الطيب أبو الحسن البصري الغزالي تحقيق / خليل الميسر دار الكتب التعليمية بيروت الطبعة الأولي ١٤٠٣ هـ .

- مفردات ألفاظ القرآن للمؤلف / الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني تحقيق / صفوان عدنان داودي دار العلم – دمشق – بيروت ١٤١٢هـ .

- نظم الدرر في تناسب الآيات و الصور و تفسبر البقاعي ، المؤلف إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ، دار الكتاب الإسلامي– القاهرة .

- نهاية الو صول في درا سة الأ صول لـ صفي الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموي الهندي المحقق د/ صالح بن سلمان اليوسف و د/ سعد ين سليمان السويح المكتبة التجارية بمكة المكرمة – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .